آفاق
السمو الروحي

ⓒ حسن موسى الصفار، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصفار، حسن بن موسى بن رضي

آفاق السمو الروحي. / حسن بن موسى بن رضي الصفار. ـ القطيف، ١٤٤٢هـ

٢٤٨ص، .. سم

ردمك: ٣-٧١١٤-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- الأخلاق الإسلامية ٢- الفضائل الإسلامية أ. العنوان

ديوي ٢١٢,٢ ١٤٤٢/٦٩٩٢

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٦٩٩٢

ردمك: ٣-٧١١٤-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ ـ ٢٠٢١م

القطيف ـ المملكة العربية السعودية

أطياف للنشر والتوزيع

هاتف / فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (١٣) ٩٦٦ +

القطيف - شارع القدس

ص.ب ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١

المملكة العربية السعودية

E-mail: Atyaf.qatif@gmail.com

حسن موسى الصفار

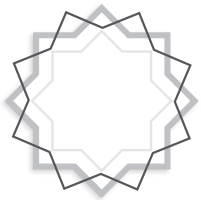

آفاق السمو الروحي

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

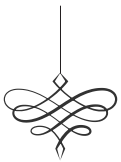

المحتويات..... ٧
مقدمة..... ٩
الفصل الأول: في أعماق الروح ١١
الفراغ الروحي: قلق واضطراب..... ١٣
الإنسان بين الانشداد المادي والسمو الروحي..... ٢٣
حديث الفطرة عن الله..... ٣٣
الفطرة والوجدان يميزان الخير من الشّر..... ٤١
محكمة الضمير والوجدان..... ٤٥
إحياء روح الأمل والرجاء..... ٥١
لا لليأس والقنوط..... ٥٧
الوسوسة وضررها على الإنسان ٦١
الفصل الثاني: تأملات في الذات ٦٩
الانفتاح على الذات ٧١
تصفية الرغبات والتوجهات..... ٧٩
وعي المسؤولية في الحياة..... ٨٧

المعرفة والالتزام السلوكي ٩١
الاعتبار ومواجهة احتمالات الخطر ٩٧
الإنسان حين يظلم نفسه ١٠٣
كيف يخون الإنسان نفسه؟! ١١١
حين تحترم نفسك ١١٩
تقويم العمل بأثره على النفس ١٢٥
الفصل الثالث: في العلاقة مع اللّه ١٣٣
الارتباط بالله بين الاستمرارية والموسمية ١٣٥
حسن الظن بالله ١٤٣
الرضا بقضاء الله ١٤٩
اللجوء إلى الله ١٥٥
تعزيز الثقة بالله ١٦١
معنى التوكل على الله ١٦٩
عبادة الأحرار ١٧٥
سعة رحمة الله ١٨١
العفو الإلهي ١٨٩
أنِ اشْكُرْ لله ١٩٧
الفصل الرابع: تطلعات روحية ٢٠٧
التنمية الإيمانية ٢٠٩
كيف يكون الانسان مباركًا؟ ٢١٧
في معنى التوفيق وأسبابه ٢٢٣
المكاسب العاجلة وخسارة المستقبل ٢٢٩
المكاسب المعنوية وحمايتها من الآفات ٢٣٥

مقدمة

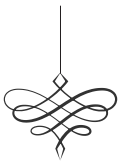

تَعَمْلَقَ عقلُ الإنسان في هذا العصر، وحلَّق في آفاق العلم والمعرفة، فغزا الفضاء وسيّر المركبات إلى المريخ بعدما وطأ سطح القمر، وأبدع في التطوير التكنولوجي وصناعة التقنيات.

كما حقق الإنسان تقدمًا كبيرًا في مجال العناية بجسمه، وتوفير كل مستلزمات الراحة والرفاه والرعاية الصحية، بالوقاية من كثير من الأمراض الفتاكة ومقاومتها، فارتفع معدل الأعمار في مختلف البلدان بنسب متفاوتة، واشتدّ التنافس في مجال رشاقة الأجسام وتجميلها، وتطوير وظائف أعضائها.

لكن البعد الروحي في شخصية الإنسان لم ينل حظًا موازيًا من الرعاية والاهتمام في هذا العصر، بل كان نصيبه الإغفال والإهمال، فتعرض كيانه الروحي للهشاشة والضعف، وصار الإنسان يعاني من الاغتراب والتصحّر، والشعور بالقلق والضياع وفقدان المعنى للحياة.

شغلته لذات الحياة وهمومها عن التفكير في معنى وجوده، وصرفته عن الاستجابة لنداء فطرته، والارتباط بخالقه ومُوجِدِه، والإعداد لمستقبله بعد رحيله الحتمي عن هذه الدنيا. صار يلهث ويلهث خلف تحقيق المزيد من المكاسب والإنجازات المادية خارج ذاته، بينما يعيش في داخله الفراغ والخواء.

ما أحوج الإنسان للتوقف قليلًا حتى يتأمّل ذاته، ويستكشف أعماق روحه، ويفكر في غاية وجوده، ليدرك المعنى في حياته، ويحقق التوازن بين أبعاد شخصيته العقلية والجسمية والروحية.

وتلك هي الرسالة التي تحملها صفحات هذا الكتاب للقارئ الكريم، إنها حديث الروح للروح، بلغة المصارحة الوجدانية، والموعظة الصادقة المستقاة من نصوص الوحي الإلهي، وهدي النبوة والإمامة.

أرجو أن تكون حافزًا للارتقاء والسمو الروحي، بفضل اللّه وتوفيقه.

والحمد لله ربّ العالمين.

حسن الصفار

٢٦ جمادى الأولى ١٤٤٢هـ

١٠ يناير ٢٠٢١م

الفصل الأول

في أعماق الروح

الفراغ الروحي: قلق واضطراب

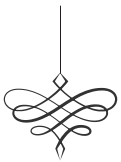

للإنسان في هذه الحياة احتياجات ومتطلبات، ولا تستقر حياته إلا إذا وجد أمامه الفرصة لتحقيق تلك الاحتياجات، ويمكننا أن نقسم متطلباته إلى ثلاثة أصناف، يرتبط كل صنف منها ببعد من أبعاد شخصيته.

الصنف الأول: الاحتياجات المادية، وترتبط بالبعد الجسمي المادي من حياة الإنسان، كالحاجة إلى الغذاء، والكساء، والسكن، والجنس، والدواء..

وهي احتياجات ضرورية، إذا لم تتوفر تضطرب حياة الفرد والمجتمع، ومعلوم أن معاناة الفقر والحرمان ولو في جزء من المجتمع، قد تسلب الأمن والاستقرار من المجتمع كله، لأنها تكون أرضية للتمرد والإجرام، لذا ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «كَادَ الفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا»[1] وينقل عن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قوله: «عجبت

(١) محمد يعقوب الكليني. الكافي، ج٢، ص٣٠٧، حديث٤. وعلاء الدين علي المتقى بن حسام الدين الهندي. كنز العمال، ج٦، ص٤٩٢، حديث١٦٦٨٢.

لمن لا يجد القوت في بيته، كيف لا يخرج على الناس شاهرًا سيفه»[١].

الصنف الثاني: المتطلبات العقلية، فالعقل الذي منحه اللّـه تعالى للإنسان، يتطلب العلم والمعرفة، ويحتاج إلى الأجواء التي تتيح له حرية الفكر، وإلى الوسائل والأدوات المساعدة على النشاط العلمي والفكري، ومن الوهلة الأولى التي خلق اللّـه تعالى فيها الإنسان، وفّر له فرصة العلم والتعلم، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[سورة البقرة الآية٣١]، ويقول تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[سورة الرحمن الآية٣ـ ٤].

وإذا حُظر على الإنسان نشاطه الفكري، وحريته العلمية، وسلب حق المعرفة، فإنه يفقد الجزء الأساس من إنسانيته، وبالتالي لا يشعر بالكرامة والراحة.

لذا أوجب الإسلام بذل العلم، وإتاحة الفرصة للمعرفة والتعلم، روي عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «مَنْ كَتَمَ عِلْمًا نَافِعًا، أَلْجَمَهُ اَللَّهُ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»[٢].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[سورة البقرة الآية٣] يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «مِمَّا عَلَّمْنَاهُمْ يَبُثُّونَ»[٣].

الصنف الثالث: التطلعات الروحية المعنوية، فالإنسان روح وجسد،

(١) الشيخ باقر شريف القرشي. النظام السياسي في الإسلام، ص٢٤٧.
(٢) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٢، ص٧٨.
(٣) المصدر نفسه، ج٧٠، ص٢٦٧.

وكما أن للجسد احتياجاته ومستلزماته، كذلك فإن للروح تطلعاتها، وهي ذات تأثير كامل على سير الجانب المادي في حياة الإنسان، فلو توفرت له كل احتياجاته المادية، لكنه كان يعيش الخواء والجوع الروحي، فإن حياته لا يمكن أن تستقر أو تهنأ.

احتياجات الروح

الروح تحتاج إلى الطمأنينة والثقة والرضى، وراحة الضمير والوجدان، والماديات بمحدوديتها وتقلباتها ونقائصها ومنغصاتها، لا توفر للإنسان السعادة والاطمئنان والاستقرار الروحي.

فلا بدّ أن تتصل روح الإنسان بما فوق المادة، بالقوة المطلقة التي لا حدَّ لها، التي إليها مرجع الأمور.

صحيح أن الإنسان يمتلك شيئًا من القدرة والقوة، خاصة في هذا العصر، حيث تطورت إمكانات البشر، وتقدمت قدراتهم العلمية والتكنولوجية، لكن الإنسان يدرك أن حياته وقدراته وقواه ليست ذاتية، فهو جاء إلى الحياة بغير قرار منه، ويخرج منها دون اختيار، وفي أي لحظة من اللحظات، حيث لا يستطيع التحكم في توقيتها.

ويدرك الإنسان بفضل تقدمه العلمي الآن، مدى محدوديته وضآلته، قياسًا إلى هذا الكون الفسيح الذي يعيش في رحابه، فالكرة الأرضية التي يحيا على سطحها يمتد عمرها إلى ما قبل ٤,٥ بليون سنة، وهي على ضخامتها مجرد كوكب يدور حول الشمس، مع تسعة

كواكب أخرى، تكوّن مجموعة شمسية، وهذه الشمس يبلغ حجمها ١,٣٠٠,٠٠٠ مرة قدر حجم الأرض، وهي نجم واحد بين البلايين من النجوم، تتكون منها مجرة تدعى (درب التبّانة)، ويقدر عمرها بما يتراوح بين ١٠ و١٥ بليون سنة، وهذه المجرة واحدة من بلايين المجرات التي تسبح في محيط الكون[١]!!

وكما يقول أحد العلماء: لو أردنا أن نشبّه الكون لقلنا: إنه يشبه المحيط الكبير، وكل مجرة من المجرات هي جزيرة في ذلك المحيط الكبير، وكل مجموعة شمسية في كل مجرة، تشبه قطعة أرض في تلك الجزيرة، وأرضنا التي نعيش عليها بمقدار نملة في قطعة أرض، ضمن جزيرة من بلايين الجزر، في ذلك المحيط الكبير!! فما هو إذًا حجم الإنسان قياسًا إلى هذا الكون العظيم!

إنه يشعر بضعفه وعجزه، مع كل ما أنجز وحقق من تقدم علمي، ومكاسب تكنولوجية، ويظهر ذلك جليًا حينما تعصف به الكوارث الطبيعية، كالزلازل والبراكين، والفيضانات والأعاصير.

وهو يفقد السيطرة حتى على جسمه ومشاعر نفسه، فبينما هو في قمة الصحة والنشاط، تغزوه العلل والأمراض، وتدركه الشيخوخة والهرم، وحين يصبح في غاية السرور والبهجة، فقد تصيبه الكآبة والحزن، وهكذا يتقلب بين الحالات المختلفة، لا يستطيع أن يحتفظ

(١) الموسوعة العربية العالمية. ج١٤، ص٢٤٦.

لنفسه بحالة معينة، ولا أن يدفع عنها أخرى.

هذا الشعور العميق بالمحدودية والضعف، والإحساس الكبير بالضآلة والعجز، يدفع الإنسان إلى البحث عن مصدر القوة والقدرة، وعن الجهة المهيمنة على الكون والحياة، لتطمئن نفسه بالارتباط بها، وليسكن قلبه، وتستقر مشاعره، بالاقتراب منها.

وذلك هو الدين، الذي يقدم للإنسان الإجابة عن تساؤلاته الحائرة، حول وجوده ومصيره، ويشق له طريق التواصل والتعاطي مع خالق الكون والحياة.

فالتدين نزوع فطري عند الإنسان، لتركيبته المميزة من روح وعقل وجسد، يقول (وول ديورانت) في قصة الحضارة: «لم تنشأ العقيدة الدينية عن تلفيقات أو ألاعيب كهنوتية، إنما نشأت عن فطرة الإنسان بما فيها من تساؤل لا ينقطع، وخوف وقلق وأمل وشعور بالعزلة»[1].

لكن الإنسان قد يضل الطريق إلى الدين الصحيح، إذا لم يتوفّق للهدي الإلهي والرسالات السماوية.

التقدم المادي هل يكفي؟

قد يتصور البعض أن مجتمعاتنا في حاجة للرقي العلمي، والتقدم التكنولوجي، والتطور السياسي والاقتصادي، لتلحق بركب الحضارة والتقدم، أما الجوانب الروحية والدينية، فهي أمرٌ هامشي كمالي، لا دور

(١) ويل ديورانت. قصة الحضارة، ج١، ص١١٧.

له في صناعة واقع التطور والتقدم.

لكن ومع الإقرار بحاجة مجتمعاتنا إلى الرقي العلمي والتكنولوجي والسياسي والاقتصادي، إلا أن إشباع الجانب الروحي له أولوية ومركزية، لا يمكن التساهل تجاهها.

إن المجتمعات الغربية المتقدمة، التي نطمح للاقتراب من مستوى تقدمها، تعيش أزمات اجتماعية خطيرة، تنغّص عليها لذة التقدم، بسبب ما تعانيه من خواء وفراغ روحي.

فالوفرة المادية، والتفوق العلمي، وحدهما لا يمنحان الإنسان السعادة والاطمئنان، وإذا لم يُملأ الفراغ الروحي، فإن حياة الإنسان تكون عرضة للعذاب والاضطراب.

اينشتاين نموذجًا

الرجل الذي وضع النظرية النسبية كان فاشلًا في حياته الخاصة، بل كان (البرت اينشتاين) زير نساء، شرسًا قاسيًا مع أطفاله، وأبًا لابنة غير شرعية، لم يرها ولا اعترف بها تدعى (ليزريل)، وتكشف وثائق ومستندات بينها رسائل شخصية ـ ضمن العائلة ـ أن زواج اينشتاين الأول من (ميليغا ماريك) أدى إلى الطلاق بسبب علاقة سرية ربطته بقريبته (إلسا).

وتشير الرسائل إلى شراسة اينشتاين حيال زوجته (ميليفا ماريك) أثناء فراقهما، ممّا أصابها بانهيار عصبي لم تشف منه حتى وفاتها.

وتنسحب تلك الشراسة على معاملته ولديه (هانز البرت) البكر وكان في الخامس عشرة عندما غادر والده المنزل العائلي، (وإدوارد) الأصغر الذي أصيب بالخبال بعد طلاق أبويه وأمضى حياته في عيادة سويسرية للأمراض العصبية، فلم يزره والده مرة[١].

ومثل اينشتاين ما حصل لـ (آرمسترونج: نيل اولدن) وهو أول إنسان وطأت قدماه سطح القمر في ٢٠ يوليو ١٩٦٩م، إلا أنه كان يفقد السعادة والاطمئنان، فقد طلق زوجته واصطدم مع أبنائه، واصطبغت حياته بالاضطراب والكآبة.

عن واقع المجتمع الأمريكي

المجتمع الأمريكي هو في القمة من الحضارة المادية المعاصرة، لكن الفراغ الروحي في ذلك المجتمع، أنتج مضاعفات ومعاناة خطيرة في حياة وسلوك الأمريكيين، حيث ينتشر القلق، وتزداد حوادث الانتحار، وتتصاعد جرائم العنف، حتى على مستوى طلاب المدارس الابتدائية، كما تحدثت عن ذلك وسائل الإعلام، عدا عن الفساد الأخلاقي المستشري.

ففي سنة ماضية تصدّر قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في أمريكا، حسب صحيفة (نيويورك تايمز) كتاب عنوانه (الخروج النهائي) تأليف البريطاني (ديريك همفري سيتندر) الذي يتحدث عن أساليب الانتحار

---

(١) جريدة الحياة. ١٤ صفر ١٤١٤هـ.

ووسائله المختلفة، بلغة إرشادية توجيهية[١].

هذا الواقع المأزوم لفت أنظار المفكرين الغربيين إلى موقع الخلل في الحضارة المادية، وهو الخواء والفراغ الروحي، كما دفع بفئات من المجتمع الأمريكي والغربي، إلى البحث عن مصدر إلهام روحي، يسد ذلك الفراغ، ويملأ ذلك الخواء، مما أفسح المجال لنمو التوجهات الأسطورية والخرافية.

وعن هذه الحالة يتحدث الباحث الأمريكي (روستو) في كتابه الرائد (مراحل النمو الاقتصادي)، حيث يرى:

أن الدول تمرّ بمراحل عدة: مرحلة المجتمع البدائي، مرحلة التهيؤ للانطلاق، مرحلة النضج، مرحلة الاستهلاك الجماهيري وما بعده. ويؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية، هي المجتمع الوحيد الذي وصل إلى مرحلة الاستهلاك الجماهيري، وأنه ينتقل إلى ما بعده، ومن مظاهر هذه المرحلة أن المجتمع ينتج أكثر مما يستهلك، وتتحدد مشكلته الاقتصادية في خلق الطلب، وليس في توفير العرض، وتتحكم فيه وسائل الإعلام وأدوات الدعاية، فيما يتحول عن الإشباع المادي إلى ما يمكن أن يسمى الاتجاه الروحي، ومن ثم تنتشر الخرافات والأوهام والمذاهب والبدع والادعاءات، سواءً تعلقت بالدين أو خرجت منه أو عليه.

---

(١) جريدة السفير. ٣٠ محرم ١٤١٢هـ.

كما يشير إلى أن المجتمع الأمريكي ذو خصوصية مميزة هي الغنى، بل إن الولايات المتحدة أغنى دول العالم، إذ يزيد ناتجها القومي الإجمالي عن ٥,٥ تريليون دولار، بينما يزيد متوسط الدخل الفردي عن ٢٢ ألف دولار[١]، مع ارتفاع مستوى التصنيع والتقدم التكنولوجي، والعمر المتوقع عند الميلاد. والمدقق في الحياة الأميركية، قد يفاجأ بمظاهر عدة للتدهور الاجتماعي، إلى حدّ الفوضى الداخلية التي لا رابط لها.

ومن القضايا التي يتناولها التلفزيون الأمريكي، مسألة كشف الغموض، ومعرفة الحظ، أو قراءة الطالع، والبحث عن المفقود، حتى وإن كان حبيبًا أو رفيقًا، أو ربما مالًا وجاهًا، ففي هذه الحال عليك أن تتصل برقم مكتوب على شاشة التلفزيون، وتحكي ما تعاني منه، أو تبحث عنه، أو ربما ما تريد أن تتجنبه، وسوف تعطى الإجابة عما تريد: هل فقدت مالًا؟ هل فقدت أوراقًا ووثائق مهمة؟ سوف يظهر لك شخص دجال أو طبيب، يقودك بالإيحاء لإيجاد ضالتك ويحصل منك على حاجته وهو المال بالطبع[٢].

الدرس والعبرة

ليس المقصود من استعراض مكمن الضعف والخلل في الحضارة المادية، رسم صورة سوداء قاتمة لهذه الحضارة، ولا مجرد التشهير

(١) هذه الإحصائيات ترتبط بزمن تحرير المقال.
(٢) جريدة الحياة. ٢٩ شوال ١٤١٥هـ.

بأوضاع تلك المجتمعات، فهي حضارة تفرض هيمنتها على واقع الحياة، بإنجازاتها العلمية والتكنولوجية، ويجب أن تطمح مجتمعاتنا للالتحاق بركبها المتقدم، إلا أن المطلوب هو التمييز والفرز بين نقاط القوة والضعف في هذه الحضارة المادية، وحتى ندرك خطورة الجانب الروحي، فلا نتجاهله ونهمله، في تقويم أوضاع مجتمعاتنا، بل نهتم بالبرامج والخطط التي تنمّي التطلعات الروحية وتغذّيها.

إن اللّـه سبحانه وتعالى يحذّر البشرية من أن تجاهل الجانب الروحي يسبب القلق الفردي، والاضطراب الاجتماعي، وبالتالي ضنك العيش، وشقاء الحياة، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[سورة طه الآية١٢٤] بينما التوازن والتكامل في تلبية احتياجات الإنسان في توجهاتها المادية والعقلية والروحية، يضمن للإنسان حياة طيبة سعيدة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[سورة النحل الآية٩٧].

الإنسان بين الانشداد المادي والسمو الروحي

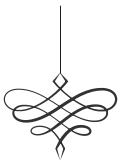

خلق اللَّـه الإنسان مزيجًا من عنصرين، أحدهما مادي والآخر روحي، قبضة من طين وومضة من روح، يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[سورة ص: الآيتان ٧١ـ ٧٢].

هذا المزج في خلق الإنسان بين عنصري المادة والروح، هو سبب حالة الصراع الداخلي عند الإنسان، بين طرفي هذه المعادلة، الطين والروح، فعنصر المادة أو الطين يشده نحو الأرض، وينحدر به إلى الاهتمامات المادية، بينما عنصر الروح يدفعه إلى الأعلى، ويحلّق به في سماء القيم والمثل. وفي هذا الصراع يكمن امتحان الإنسان، ويكون التحدي الأكبر، وعلى نتيجة هذا الصراع يتقرر مصير الإنسان ويتحدد مستواه، إما في أحسن تقويم، حينما يعيش حالة التوازن، ويمارس اهتماماته المادية في ظل القيم وتحت سقف المبادئ، وإما في أسفل سافلين، إذا ما اتخذ إلهه هواه، وسيطرت عليه شهواته ورغباته.

ويمكننا أن نحدد أهم خطوط التماسّ ونقاط التعارض بين التوجهين في حياة الإنسان في الأبعاد الثلاثة التالية:

أولًا: بين الشهوة والتعقل

فمن عنصر الطين وجدت في الإنسان الغرائز والشهوات، وهي تضغط عليه لإشباعها، وتلبية متطلبات الجسم ورغباته من طعام وشراب وجنس وراحة، وما يرتبط بها من مال ومنصب ومقام. لكن الاستجابة المطلقة لهذا الاتجاه، تحوّل الإنسان إلى مستوى الحيوانات البهائم التي لا هم لها إلا هذه الرغبات، ولا اهتمام لها سواها، فهي تأكل في كل مكان من مزبلة أو مرعى، وتشرب من أي ماء نظيفًا كان أو قذرًا، وتمارس الجنس في أيّ وضع؛ لأنها مسيرة بغرائزها فقط.

لكن حالة التعقل عند الإنسان، والنابعة من عنصر الروح، هي التي تضع له في ممارسة شهواته ورغباته حدودًا وضوابط، فيأكل ويشرب وينكح ويتملك ويتزعم، ولكن كل ذلك ضمن توجيه العقل وهدايته.

فالاستجابة الأكثر للشهوة، تعني الانحدار في أعماق الحالة الطينية المادية، بينما التعقل والضبط الأفضل للرغبات والشهوات، يعني السمو الأكبر في آفاق التطلعات الروحية المعنوية.

ثانيًا: بين الأنانية والسمو

فالجانب الطيني يركز في الإنسان حالة الأنانية، وتعني الاهتمام بالذات فقط، وتغليب المصالح الشخصية على كل شيء، إذ المادة

كمادة، ليس لها قدرة على التوجه لخارج ذاتها، فهي تعيش بذاتها لذاتها.

بينما جانب الروح يوجه الإنسان إلى الأفق الأرحب، خارج ذاته، فيتطلع إلى رضا ربه وخالقه، ويهتم بأوضاع الآخرين من حوله، ويفكر في المصلحة العامة.

إن الأنانية النابعة من الطين هي التي تدفع الإنسان للاعتداء على حقوق الآخرين من أجل أن يكسب، وهي التي تمنعه من العطاء والبذل، ليوفر أكبر قدر من الإمكانات لنفسه هو.

لكن ضمير الإنسان ووجدانه، المنبثق من نفخة الروح الإلهية، هو الذي يردعه عن الظلم والعدوان، ويشجعه على نفع الآخرين ومساعدتهم، بل وإيثارهم على ذاته ونفسه.

فاقتصار الإنسان على الاهتمام بذاته هو انحدار مادي، وتوجهه نحو الآخرين والمصلحة العامة هو سمو روحي.

ثالثًا: بين المحدودية والقيم

فالطين مادة تشغل حيزًا محدودًا من الزمان والمكان، وهي تحدد الإنسان بحدودها الضيقة، وتشغله بمتطلباتها ومستلزماتها الآنية العاجلة، بينما الروح مرتبطة بالمطلق اللامحدود واللامتناهي، إنها نفخة من اللَّـه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ والإضافة هنا للتشريف وإلّا فليس للَّـه جسم أو روح بالمعنى المتداول عندنا.

والروح تفتح الإنسان على عالم القيم والمثل، وهو عالم واسع عريض رحب، إذا تطلّع إليه الإنسان، تسامى على الماديات المحدودة، وجنّد نفسه لخدمة القيم الإلهية الخالدة، فيكون داعيًا للخير، ورائدًا للعدل، وعاملًا من أجل الحق.

من هنا فإن من يكرّس حياته للماديات يكون منحازًا لجانب الطين في خلقته، بينما من ينذر نفسه للمبادئ والقيم يكون محلِّقًا في عالم الروح، خالدًا في نعيم الرضوان الإلهي.

شهر رجب موسم روحي

شهر رجب المرجب هو أول شهور الموسم الروحي للأمة الإسلامية، يعقبه شهر شعبان ثم شهر رمضان المبارك.

هذا الموسم الروحي ينبغي أن يعزز في أنفسنا التطلعات الروحية، وأن يقوّي إرادتنا للانتصار للبعد الروحي في شخصياتنا، وأن يساعدنا على ضبط انشدادات الطين، ورغبات المادة في حياتنا.

وقد وردت في فضل شهر رجب روايات كثيرة، منها:

- ما روي عن أبي سعيد الخدري عن رسول اللّـه ﷺ أنه قال: «ألا إنّ رجبًا شهر اللّـه الأصم وهو شهر عظيم»[1].
- وما روي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: «رَجَبٌ شَهْرٌ

(١) محمد بن الحسن بن علي الحر العاملي. وسائل الشيعة، ج١٠، ص٤٧٥.

عَظِيمٌ يُضَاعِفُ اَللَّـهُ فِيهِ اَلْحَسَنَاتِ، وَيَمْحُو فِيهِ اَلسَّيِّئَاتِ»[١].

■ وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اَللَّـهِ صلى الله عليه وآله: رَجَبٌ شَهْرُ اَلِاسْتِغْفَارِ لِأُمَّتِي، أَكْثِرُوا فِيهِ مِنَ اَلِاسْتِغْفَارِ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، اِسْتَكْثِرُوا فِي رَجَبٍ مِنْ قَوْلِ أَسْتَغْفِرُ اَلله، وَسَلُوا اَللَّهَ اَلْإِقَالَةَ وَاَلتَّوْبَةَ فِيمَا مَضَى، وَاَلْعِصْمَةَ فِيمَا بَقِيَ مِنْ آجَالِكُمْ، إِلَى أَنْ قَالَ: وَسُمِّيَ شَهْرُ رَجَبٍ اَلْأَصَبَّ؛ لِأَنَّ اَلرَّحْمَةَ تُصَبُّ عَلَى أُمَّتِي فِيهِ صَبًّا»[٢].

وهناك روايات وأحاديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ترسم أمامنا بعض البرامج الروحية لاستثمار هذا الشهر الكريم، والاستفادة من خيراته المعنوية، ومن أهم تلك البرامج والمستحبات:

أولًا: الصوم

والصوم إعداد وتدريب للإنسان على الضبط، والتحكم في الرغبات والشهوات، حيث يمتنع الإنسان بإرادته واختياره عند الصوم عن المفطرات، التي هي من أبرز الرغبات كالأكل والشرب والجنس.

وإذا كان الصوم واجبًا في شهر رمضان فقط، فلأنه الحد الأدنى مما يحتاجه الإنسان من إعداد وتدريب سنوي، لكن أصحاب الطموح والتطلع للرقي الروحي، والتقدم المعنوي، لا يكتفون بصيام شهر

(١) وسائل الشيعة، ج١٠، ص٤٧٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٥١١.

رمضان الواجب، لذا وضع الإسلام برامج صوم إضافية على نحو الاستحباب، لإتاحة الفرصة لهؤلاء الطامحين المتطلعين.

والصوم في شهر رجب هو من أبرز تلك البرامج، فمن استطاع أن يصوم طوال شهر رجب فقد نال النصيب الأوفى، وإلّا فليصم نصفه أو ثلثه أو ربعه، ولا ينبغي أن يفوت الإنسان الصوم في شهر رجب، ولو يومًا واحدًا.

وعن علي بن سالم عن أبيه «قال: دخلت على الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام في رجب وقد بقيت منه أيام، فلما نظر إليّ قال لي: يا سالم، هل صمت في هذا الشهر شيئًا؟

قلت: لا واللّـه يا بن رسول اللّـه. فقال لي: لقد فاتك من الثواب ما لا يعلم مبلغه إلّا اللّـه عزّ وجلّ، إنّ هذا شهر قد فضله اللّـه، وعظم حرمته، وأوجب للصائم فيه كرامته»[1].

روي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «رجب نهر في الجنة أشدّ بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، فمن صام يومًا من رجب سقاه اللّـه من ذلك النهر»[2].

ثانيًا: العمرة

زيارة بيت اللّـه الحرام، وأداء مناسك الطواف والصلاة والسعي،

(١) وسائل الشيعة، ص٤٧٥.
(٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص٤٧٥.

وما تستلزمه من تكاليف، ويتبعها من أحكام وواجبات، هذه الزيارة تؤكد في نفس الإنسان الخضوع للّـه، وتنفيذ أوامره في جميع شؤونه، كما توحي له بأن يكون الرب محور حياته وحركته، وأن يجتهد في السعي لتحقيق مرضاته، وكل منسك من المناسك، ومعلم من معالم الحرم الشريف، تشكل رموزًا وإضاءات للإنسان في حياته الروحية وبعده المعنوي.

وإذا كان الواجب على الإنسان قصد البيت الحرام، وأداء مناسك الحج والعمرة مرة واحدة في العمر، فإنّ التردد على زيارة البيت الحرام، وأداء النسك، يعني المزيد من الاستلهام الروحي، والإضاءة الإلهية لقلب الإنسان ومسيرته.

ومن مستحبات شهر رجب المبارك، أداء مناسك العمرة، وإذا كان البعض من علماء المسلمين لا يرون ميزة خاصة للعمرة في شهر رجب، فإنّ أتباع أهل البيت عليهم السلام يأخذون بأقوال أئمتهم الهداة، التي تؤكد استحباب العمرة في هذا الشهر، وأفضليتها فيه على بقية الشهور، وأقوال الأئمة حجة شرعية علينا.

فقد سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «أَيُّ اَلْعُمْرَةِ أَفْضَلُ عُمْرَةٌ فِي رَجَبٍ أَوْ عُمْرَةٌ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فَقَالَ «لاَ بَلْ عُمْرَةٌ فِي شَهْرِ رَجَبٍ أَفْضَلُ»[1].

(١) وسائل الشيعة، ج١٤، ص٣٠١.

وعنه عليه السلام أيضًا: «المعتمر يعتمر في أي شهور السنة شاء، وأفضل العمرة عمرة رجب»[١].

وبحمد اللّـه فإن الفرصة متاحة أمامنا، ونحن نعيش بقرب الحرمين الشريفين، والوسائل مهيأة للقيام بمناسك العمرة، حتى في غضون ساعات، فهنيئًا للمبادرين للعمرة في هذا الشهر الفضيل، كما أنّ التنظيم الجديد الذي أقره مجلس الوزراء والذي ستتاح بموجبه فرصة العمرة لأيّ مسلم خلال تسعة أشهر في السنة، هذا القرار سيبعث البهجة والسرور في نفوس مسلمي العالم، ويمكن القادرين منهم على زيارة الحرمين الشريفين في أيّ وقت، وله انعكاسات جيدة على الوضع الاقتصادي.

ثالثًا: الصلاة والدعاء والذكر

الصلاة معراج المؤمن، حيث ينطلق بروحه وقلبه وفكره في آفاق السمو الإلهي، متجاوزًا حدود الاهتمامات المادية، محلقًا في أجواء ذكر اللّـه، ومتنعمًا بلذة المثول في حضرة الربّ سبحانه.

وفي شهر رجب المبارك ينبغي المواظبة على أداء النوافل اليومية وخاصة صلاة الليل، وهناك أدعية خاصة، تذكّر الإنسان بعظمة ربه وبأسمائه الحسنى، وتوجه الإنسان إلى الحقائق الكونية، وإلى مكارم الأخلاق، وجميل السلوك والصفات، ورد استحباب قراءتها والمواظبة

(١) وسائل الشيعة، ج١٤، ص٣٠٣.

عليها في هذا الشهر الفضيل. وهي مذكورة في كتب الأدعية المعروفة كمفاتيح الجنان للشيخ القمي والدعاء والزيارة للسيد الشيرازي.

رابعًا: الصدقة

إنّ مساعدة الفقراء والمحتاجين تدل على صدق تديّن الإنسان، ولعله لذلك سمّيت صدقة اشتقاقًا من الصدق، بينما التجاهل لأوضاع المحرومين، علامة على كذب ادّعاء التديّن، فلا يثبت للإنسان دين وإيمان مع إعراضه عن حاجات الضعفاء والفقراء، يقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[سورة الماعون: الآيات ١ ـ ٣].

وإذا كانت الصدقة مطلوبة في كل وقت، ولها نتائجها العظيمة على حياة الإنسان قبل آخرته، حيث إنها كما ورد في الأحاديث، تدفع البلاء وتزيد الرزق، وتطيل العمر، إلّا أنها في هذا الشهر الكريم أكثر ثوابًا وأعظم بركة.

ففي حديث مروي عن رسول اللّه ﷺ يتحدث فيه عن فضل شهر رجب والصيام فيه، قال: «يَتَصَدَّقُ كُلَّ يَوْم بِرَغِيفٍ عَلَى اَلْمَسَاكِينِ، وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ إِذَا تَصَدَّقَ بِهَذِهِ اَلصَّدَقَةِ كُلَّ يَوْم يَنَالُ مَا وَصَفْتُ وَأَكْثَرَ، إِنَّهُ لَوِ اِجْتَمَعَ جَمِيعُ اَلْخَلاَئِقِ كُلِّهِمْ عَلَى أَنْ يُقَدِّرُوا قَدْرَ ثَوَابِهِ مَا بَلَغُوا عُشْرَ مَا يُصِيبُ فِي اَلْجِنَانِ مِنَ اَلْفَضَائِلِ وَاَلدَّرَجَاتِ»[1].

(١) وسائل الشيعة ج١٠، ص٤٨٣.

حديث الفطرة عن الله

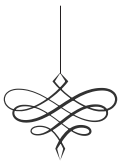

يدرك كلّ إنسان بعقله ووجدانه ساعة يفتح عينيه على هذه الحياة، أنّ وجوده إنما جاء بفعل قوة خارجة عن حدوده الذاتية. حيث يدرك أنه ليس الموجد لنفسه، وذلك لأنه من حيث الأصل لم يكن موجودًا، فكيف يتسنّى له منح الوجود لنفسه!. وفيما لو تجرّأ أحد على الادّعاء بأنه قد أوجد نفسه، فهذا يعني بطبيعة الحال أنه قادر على إدامة وجوده في هذه الحياة، ولا أحد يدّعي ذلك، بل وأبعد من ذلك، لا يدّعي القدرة على دفع الضرر أو جلب المنفعة إلى نفسه على النحو الذي يريد، وهذا أمر وجداني يعيشه الإنسان في كلّ لحظة.

ومعنى ذلك أنه لا بُدّ وأن تكون هناك قوة خارجة عن وجود الإنسان، هي التي أوجدته وخلقته، وهنا يلتفت ذهن الإنسان وفطرته، إلى أنّ له خالقًا موجدًا قائمًا بذاته، ولا يحتاج لغيره، وهو اللّه سبحانه وتعالى، وبهذا المعنى يكون الإيمان باللّه تعالى وتوحيده أمرًا فطريًّا وجدانيًّا تقرره حقيقة وجود الإنسان نفسه.

لقد أودع اللّه الحياة في الإنسان، وأشهده على نفسه، وقد شهد بفطرته ووجدانه أن الخالق الموجد هو اللّه سبحانه. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ﴾[سورة الأعراف، الآية: ١٢٧]، ومعنى الآية الكريمة الذي يرجّحه العلماء المحقّقون، هو ما تشهد به حقيقة وجود الإنسان وخلق الحياة، التي يشعر الإنسان فيها أنه مفتقر لغيره، وأنه ليس الموجد لنفسه، ولا قدرة لديه على إدامة وجوده، وذلك ما يكشف بطبيعة الحال عن قوة أخرى قد أوجدته وهي اللّه سبحانه وتعالى. وذهب البعض إلى القول في تفسير الآية بأنّ هناك عالمًا، سبق عالمنا هذا، يقال له عالم الذّر، وقد حشر اللّه سبحانه وتعالى الناس على هيئة الذر، أي الوجود الضئيل، وهناك سألهم سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فأجابوا بالقول: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾، حسبما ورد في بعض الروايات التي ذهبت في تفسير الآية وفق هذا المنحى، لكن فيها نقاشًا من حيث السند والمتن.

الغاية من وجود الإنسان

يعيش الإنسان في هذه الحياة وهو مدرك أنه قد تميز على سائر المخلوقات التي تعيش حوله في هذه الدنيا الواسعة، هذه الميزة تكمن في استمتاعه بقوة العقل والتفكير، وكذلك الإرادة والاختيار، بينما تغيب هذه المزايا عن غيره من المخلوقات. وهناك ميزة أخرى مهمة

وجلية، وهي أن هذه المخلوقات مسخرة له، لاستخدامها والانتفاع منها ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[سورة النحل، الآية:٨]، كل هذه المخلوقات سخرها اللّه تعالى للإنسان، ولذا جاء خطابه تعالى لبني البشر: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[سورة الجاثية، الآية:١٣]. وآيات كثيرة تدلّ على تسخير اللّه كل مخلوقاته لهذا الإنسان، ولم يجعل فوق الإنسان مخلوقًا يستخدمه ويسخره لأجله.

لكن الإنسان يرى أنه يعيش فترة من الزمن في هذه الحياة ثم يموت، وكذلك بالنسبة لباقي المخلوقات فكلها تفنى بعد فترة من الزمن، فهل هناك حياة أخرى بعد الموت؟ وهل ثمة فرق بينه وبين باقي المخلوقات التي انتقلت إلى الموت؟

الدين يمنح للحياة معنى

كل إنسان صاحب دين سماوي يستطيع أن يجيب عن هذه التساؤلات، فحينما يعيش الإنسان بلا دين، فلن يجد هناك فرقًا بينه وبين سائر المخلوقات فيما بعد الموت. كل مخلوق يعيش فترة من الزمن ثم يموت وينتهي كل شيء، ولكن الإنسان صاحب الدين يعتقد بغير هذا، فهناك هدف لوجوده. هذا الهدف يمضي معه بعد الموت وسوف يسأل عنه، على عكس غيره من المخلوقات، فهي خلقت لأجله، وإذا انتهت فترة حياتها فلن تُسأل عن شيء عملته في الدنيا.

إذًا فالإنسان المتديّن يدرك أن وجوده كان بهدف توحيد اللّه عزّ وجلّ وعبادته والخضوع له، وأنه إذا مات فسوف يبعث من جديد ويسأل عن مدى تحقيقه لهذا الهدف. هذه العبادة والخضوع هي الهدف من الوجود، وهي تتمثل في أمور شتى، ولهذا سخر اللّه عزّ وجلّ كل المخلوقات للإنسان، وخاطبه بالقول: «خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي»[1] كما ورد في حديث قدسي.

فكل إنسان مسؤول عن أعماله التي يقدمها في الدنيا، وهو يعلم بذلك، ولو لم يكن هناك نشر وبعث لعاش الإنسان حياة بهيمية، شأنه شأن غيره من المخلوقات، يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾، فالدين هو الذي يعطي للحياة قيمة ومعنى، ومن ليس له دين يفتقد معنى الحياة.

الدّنو من اللّه عزّ وجلّ

إذا علم الإنسان أن خلقه وتسخير هذه المخلوقات كلها لأجله لم يكن عبثًا، وأن الهدف من خلقه هو عبادة اللّه عزّ وجلّ والخضوع له: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وأنه سوف يُنشر بعد الموت، ويُسأل عن كل شيء، إذًا فعليه أن يقترب من اللّه عزّ وجلّ، ويسعى لأن يكون أقرب إليه كما في دعاء كميل: «حَتّى اَسْرَحَ اِلَيْكَ فِي الْمُبادِرينَ، وَاَشْتاقَ اِلى قُرْبِكَ فِي الْمُشْتاقينَ، وَاَدْنُوَ مِنْكَ دُنُوَّ الْمُخْلِصينَ». وكلما

(١) محي الدين بن عربي الأندلسي. الفتوحات المكية، ج٤، الطبعة الأولى، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص٥٢٧. علم اليقين للفيض الكاشاني، ج١، ص٣٨١.

اقترب الإنسان من ربه تجلّت له قيمته والهدف من وجوده، والفرق بينه وبين سائر المخلوقات، وأن خلقه لم يكن عبثًا، وأنه راجع إلى اللّه بعد الموت.

لماذا ينكرون وجود الله

قد ترين على قلب الإنسان ووجدانه بعض الشبهات والأهواء التي تصرفه عن الاعتراف بحقيقة خلقه ووجوده. ومن أسباب ذلك، ما يترتب على الاعتراف من آثار، وما يلزم من إخلاص العبادة له وحده، والخضوع له سبحانه، وذلك ما يتعارض بطبيعة الحال مع الشهوات والرغبات التي تأبى الخضوع والتزام أوامر اللّه، لذلك يلجأ الإنسان إلى إنكار هذه الحقيقة، كوسيلة للتهرب من التزام عبادة اللّه تعالى، لكنه يبقى مع ذلك إنكارًا ظاهريًّا، سرعان ما يتلاشى أمام شهادة أعماق نفسه بهذه الحقيقة الساطعة، وقد كشف سبحانه عن هذه الحقيقة في الآية الكريمة: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[سورة النمل، الآية: ١٤]، فسبب الإنكار، وفقًا للآية الكريمة، هو الظلم والتعالي، ومن ثم الاسترسال مع الرغبات والأهواء، فكانت أفضل وسيلة هي إنكار الخالق سبحانه تمامًا، حتى لا يرى المنكِر نفسه ملزمًا بالخضوع له.

حين تتجلى الحقيقة

عادة ما يجد الإنسان نفسه في أوقات الشدائد والأزمات وجهًا لوجه أمام حقيقة وجود الخالق سبحانه، وإن تظاهر بإنكارها والغفلة

عنها. وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّـهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾، إنّ هذا المنكِر إذا ما كان على ظهر سفينة، وأحدق به الخطر، وسط الأمواج العاتية، فسرعان ما يبحث عن قوة أو جهة يمكن أن تنقذه مما هو فيه، فيقر حينها تلقائيًّا أنّ هناك قدرة ما في هذا الكون بيدها أزمّة الأمور فيلجأ لها، وهي قدرة اللّه سبحانه وتعالى. وهذا ما يشير تحديدًا إلى أن الإنسان عندما تحدق به الشدائد، يصبح أمام الحقيقة الواضحة الجلية، بوجود الخالق القادر عزّ وجلّ. وفي هذا السياق يذكر أحد الباحثين أنه التقى أحد الشيوعيين العرب، وهو صاحب كتب ومؤلفات عديدة، فدار بينهما جدل حول حقيقة وجود اللّه التي ينكرها الشيوعي، حتى إذا انتهى الجدال، التفت الباحث إلى وجود صورة امرأة معلقة على الجدار، فسأل عن صاحبة الصورة، فأجاب الشيوعي: بأنّ تلك صورة لزوجتي يرحمها اللّه!، فهذا الشيوعي الذي استغرق في الجدل طويلًا منكرًا حقيقة وجود اللّه، إذا به في تلك اللحظة يقرّ عفويًّا بفطرته بأنه سبحانه قد توفى زوجته وهو الوحيد المسبغ للرحمة عليها!.

فولتير يعلن إيمانه أخيرًا

وعلى هذا النحو جرت الأمور مع كثير من المفكرين والفلاسفة، حيث يعترفون في لحظة ما بحقيقة الخالق سبحانه، التي طالما أكثروا الجدل في إنكارها. فقد ورد في سيرة المفكر الفرنسي الشهير فولتير (١٦٩٤- ١٧٧٨م) رائد عصر التنوير الذي هزّ بأطروحاته الفكرية

أوروبا والعالم، حتى قال عنه ديورانت في موسوعته الشهيرة قصة الحضارة: إنّ فولتير ربما كان أعظم المفكرين حيوية ونشاطًا عبر التاريخ.

وقد وردت عنه أطروحات ضدّ الأديان، حتى قال ذات مرة ساخرًا: إنه قرأ ٢٠٠ مجلد من كتب اللاهوت المسيحي، فتصورت نفسي مع قراءتها أنني أتنقل بين أقسام مستشفى للأمراض العقلية، فولتير الذي ولد مريضًا، ويعاني من الهزال، لدرجة لم يتوقع له الأطباء العيش أكثر من يوم واحد، عاش عمرًا مديدًا ناهز ٨٤ عامًا، كتب خلالها ٩٩ كتابًا ملأت عصره وشغلت الناس فكريًّا وعلميًّا، فهو من المفكرين الذين يستفيد القارئ حقًّا من علمهم وفلسفتهم، وكان هذا الرجل ضعيفًا في تعليمه وعمله، وكان والده يائسًا منه، حتى قال عنه: إنّ ابني لا يصلح لشيء، ولا يرجى منه خير، قبل أن يتفتّق عن ذلك الفكر العظيم الذي بلغ آفاق أوروبا والعالم.

إنّ فولتير هذا ومع كلّ ما ورد عنه من كفر بكلّ الأديان، ورفض الاعتقاد بالغيب، إلّا أنه في نهاية المطاف وجد نفسه أمام حقيقة وجود الخالق، على نحو لم يستطع إنكارها، حتى بنى بنفسه كنيسة في أواخر حياته، قال عنها: إنّها الكنيسة الوحيدة في أوروبا التي بنيت لعبادة اللّه، وكتب واصفًا إيمانه باللّه، بأنه ليس على إيمان الطوائف المختلفة، بل إيمان بوجود اللّه الخالق القوي الذي يجزي بالحسنة ويأخذ بالسيئة. وقد تراجع عن كتاباته المسيئة للنبي محمد ﷺ بعد أن اطّلع على سيرته،

فعاد وكتب في امتداح النبي ﷺ، والإشادة به في مؤلفاته الأخيرة.

البيئة الدينية الطاردة

هكذا يبدو الإيمان موجودًا في أعماق نفس الإنسان، لكن إعلانه هذه الحقيقة قد يتخلف لجملة أسباب. ومن تلك الأسباب وجود رد فعل على الحالة الدينية التي تنحرف عن قيم الدين، فالعيش في ظلّ بيئة دينية سيئة قد يدفع للتنكر لأصل الدين، لكن متى ما عاد الإنسان إلى نفسه وفطرته، يمكنه الفرز بين الحالة الدينية المنتسبة إلى الدين، وبين الدين نفسه، كحقيقة يقرّرها الوجدان.

من هنا، على الإنسان أن يستحضر في نفسه وجود اللّه سبحانه وتعالى، وأن يوثّق علاقته به، لا أن يقتصر في علاقته مع خالقه على أوقات الشدائد وحسب، فالوجود كلّه من اللّه، وحياتنا وآخرتنا كلّها مرتبطة باللّه الخالق الرحيم، الذي إليه مرجعنا وبين يديه سبحانه حسابنا.

الفطرة والوجدان يميزان الخير من الشّر

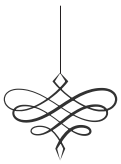

أعمال الإنسان في هذه الحياة بين لونين لا ثالث لهما: إما أن تكون ضمن قائمة الشر، أو قائمة الخير. وكل ما فيه منفعة للإنسان أو للآخرين فهو خير، وما يضرّه أو يضرّ الآخرين فهو شرّ. ومن فطرة الإنسان وعقله اللذين أودعهما اللّه تعالى فيه يستطيع أن يدرك ويميز بين الخير والشّر، يقول تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[سورة البلد، الآية: ١٠]، والنجدان كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «نجد الخير، ونجد الشّر»[١]. ويقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[سورة الشمس، الآيتان: ٧و٨]. هذه القدرة على التمييز بين الخير والشّر من أعظم الأمور التي تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، لذلك ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «من لم يعرف الخير من الشّر فهو بمنزلة البهيمة»[٢]. وكلما كانت فطرة الإنسان نقية سليمة كان أقدر على التمييز، ورد عن

---

(١) بحار الأنوار، ج٥، ص١٩٦.

(٢) الكافي، ج ٨، ص٢٤.

رسول اللّه ﷺ أنه قال: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الخير طمأنينة وإن الشّر ريبة»[١].

دور الوحي

لأنّ الإنسان قد يغفل في بعض الأحيان، أو تلتبس عليه الأمور، أو تكون على عينه غشاوة، كان من لطف اللّه تعالى أن أنزل الوحي وبعث الرسل لهداية الإنسان، ولتشجيعه على فعل الخير. الإنسان ليس بحاجة أن يدرس أن الظلم شرّ والعدل خير مثلًا. إنه أمر يدركه بفطرته ووجدانه وعقله، لكنه ربما تغافل أو تناسى، فيحتاج إلى من يذكره ويرشده، وهذا هو دور الوحي. لذلك فإن القرآن الكريم يذّكر بفعل الخير ويشجّع عليه: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[سورة الحج، الآية: ٧٧]. تشجيع وحضّ على فعل الخير دائمًا أبدًا، فالخير ليس له وقت معيّن، ورد عن رسول اللّه ﷺ: «افعلوا الخير دهركم»[٢]، أي طول حياتكم، وعنه ﷺ: «تكلفوا فعل الخير وجاهدوا نفوسكم عليه»[٣]. وإن لم يكن بمقدورك القيام بعمل الخير، فحثّ غيرك وأعنه عليه، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ»[٤].

---

(١) محمد بن عبد اللّه الحاكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين، ج٢، ص١٣.
(٢) أبو القاسم سليمان بن أيوب الطبراني. المعجم الكبير، ج١، ص٢٥٠، حديث٧٢٠.
(٣) محمد الريشهري. الخير والبركة في الكتاب والسنة، ص٦٠ عن: تنبيه الخواطر: ج٢، ص ١٢٠.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

الخير في التفاصيل والجزئيات

قد يتصور البعض أن عمل الخير يكون في الأمور الكبيرة والبارزة كبناء مسجد أو حسينية أو المساهمة فيهما، ويتغافل عمّا يعتبره أمورًا ليست ذات قيمة في الخير، كتنظيف البيت أو المساعدة في ذلك مع الزوجة والعيال.

أو إزالة القاذورات التي في الطريق والحجارة التي تؤذي المارة. ورد عن رسول اللّه ﷺ: «إماطتك الأذى عن الطريق صدقة»[1].

هكذا يربي الدين أتباعه على فعل الخير حتى في الجزئيات الصغيرة، بل على الإنسان أن يعود نفسه عليها؛ لأنها هي التي تهيئه للمبادرة لعمل ما هو أكبر من أعمال الخير. وهذا ما تؤكّده النّصوص، كما ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «افْعَلُوا الْخَيْرَ وَلاَ تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئًا، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ، وَلا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنَّ أَحَدًا أَوْلَى بِفِعْلِ الْخَيْرِ مِنِّي فَيَكُونَ وَاللّهِ كَذلِكَ، إِنَّ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَهْلًا، فَمَهْمَا تَرَكْتُمُوهُ مِنْهُمَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ»[2].

المبادرة لفعل الخير وعدم التواكل فيه

نعمة من اللّه تعالى أن يُعرض عليك فعل الخير، فلا تتردد في عمله ما دمت قادرًا عليه، ولا توكله لغيرك فتخسر هذه النعمة. البعض حينما

(١) بحار الأنوار، ج ٩٣، ص١٨٢، حديث ٣٠.
(٢) نهج البلاغة، حكمة ٤٢٢.

يُعرض عليه عمل خيري يقول: تركتم أهل المال والجاه وجئتم لي؟! يقول علي عليه السلام: «ولا يقولنّ أحدكم إن أحدًا أولى بفعل الخير مني فيكون واللّه كذلك. إن للخير والشر أهلًا فمهما تركتموه منهما كفاكموه أهله». قد يلحظ بعض الآباء هذه الحالة حينما يطلبون من أبنائهم شيئًا، تجد من طُلب منه الأمر، يُحيل أباه على أخيه، والأخ على الآخر وهكذا. إن هذا خير فلماذا تعطيه لغيرك وأنت محتاج إليه، وتفوّت فرصة ثمينة على نفسك؟ لو أعطتك الدولة مثلًا أرضًا كمنحة، فهل ستقول لهم: فلان أحقّ منّي وأحوج فهبوها له؟ أنت تنتظر هذه الفرصة ولن تضيعها.

أعمال الخير هي أهمّ وأكبر لكن أكثر الناس لا يعلمون. سوف يأتي يوم أنت أحوج ما تكون فيه إلى قيمة هذا العمل الخيري. في الآخرة، كما ينقل بعض العرفاء، يأتي الإنسان يوم القيامة ويرى شخصًا يعرفه، ينعم بقصرٍ كبير، فتصيبه الحسرة، ويتمنى أن عنده قصرًا مثله، فيسأل: من أين له هذا؟ فيقال له: هذا من عمل الخير الذي دعيت له فحولته عليه، قام به وحصل على هذا القصر. وهنا تكون الندامة.

من فطرة الإنسان قدرته على التمييز بين الخير والشّر، لكن عليه أن يربي نفسه ويعودها حبّ الخير، واجتناب الشر. وأن يكون مبادرًا لفعل الخير، وأن يعطي نفسه أولوية لفعله لا أن يوكله لغيره وهو قادر عليه.

محكمة الضمير والوجدان

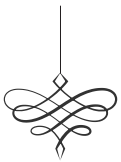

لا سبيل لأن يفلت الإنسان المخطئ من العقاب على نحو مطلق. فإذا ما أخطأ المرء وظلم أحدًا من الناس، قريبًا كان أم بعيدًا، فلربما أفلت من المحاسبة والعقاب، إمّا لشدّة تخفيه، وعدم اطّلاع أحدٍ على جرمه وظلمه، وإمّا لقوة نفوذه، خاصة في المجتمعات التي تسودها المحسوبية والفساد، أو لضعف في الطرف الآخر الذي وقع الظلم عليه. غير أنّ هذا التفلّت من العقوبة القانونية لا يعني الهروب من حكم العدالة على نحو مطلق، وإلى النهاية، ومردّ ذلك إلى وجود مفرزتين لا يستطيع الإنسان أن يفلت منهما مهما كان، المفرزة الأولى هي محكمة الضمير والوجدان، أمّا الثانية فهي الوقوف بين يدي اللّه حتمًا في نهاية المطاف.

تأنيب الضمير

أودع اللّه تعالى في أعماق نفس الإنسان ضميرًا ووجدانًا يدعوه إلى

الخير، ويحذّره من الشّر. فإذا ما سار بخلافها وظلم أحدًا، أو اعتدى على حقٍّ أحدٍ، فإنّ هذه القوة في أعماقه التي يطلق عليها قوة الضمير، لا بُدّ أن تستيقظ في يوم ما، وتوجّه العقوبة للإنسان عن طريق التأنيب والتوبيخ الذاتي، فيعاني إثْر ذلك ما يطلق عليه عذاب الضمير، الذي يبقى يوخز الإنسان من داخله، حتى وإن بدا على ظاهر حياته الهناء والراحة، فإنّ في أعماقه نارًا تضطرم نتيجة شدة التأنيب ووخز الضمير.

قد تَرينُ المصالح، وتتراكم الرغبات المادية على قلب وضمير الإنسان، فيكون في حالة خمول وسبات إلى حين. لكن هذا الضمير سرعان ما يستيقظ في يوم ما، فيعيش الإنسان إثر ذلك العذاب والألم في داخل نفسه، نتيجة ما ارتكب من جرم وخطأ، وما مارس بحق الآخرين من جور وعدوان.

وتعرف قوة الضمير في علم النفس، بأنّها «جهاز نفسي تقييمي متعلق بالأنا. تقوم بدفع الإنسان نحو تقييم ومحاسبة نفسه بنفسه، وإصدار الحكم عليها». وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى كلماته حين قال عليه السلام: «كَمْ مِنْ شَهْوَةِ ساعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَويلًا»[1]، ولعلّ من مصاديق هذا الحزن الطويل عذاب الضمير وتوبيخ الوجدان.

ولربما لاحظنا بعض المقصّرين بحقّ والديهم أو أحدهما، حين تعتريهم نوبة من يقظة الضمير، فتراهم يلومون أنفسهم على تقصيرهم

(١) الكافي، ج٢، ص٤٥١، حديث١.

في جنب أبويهم، وهذا تحديدًا هو تأنيب وعذاب الضمير الذي سيظلّ يوخز المقصّر والظالم ما دام على قيد الحياة. وقد يعتدي أحد الزوجين على حقوق الآخر، فتطوي الأيام ذاك الاعتداء، إلى أن يستيقظ الضمير ذات يوم لينهش دواخل الإنسان تأنيبًا وتقريعًا، ويزداد وخز الضمير حدّة حين يكون الطرف المعتدى عليه قد فارق الحياة. وهكذا الحال مع حالات الاعتداء على مختلف الناس. ومما يحضرني في هذا الشّأن، أنّ شخصًا أعرفه قد جاوز السبعين عامًا، وكان قبل وفاته بسنوات يبدي لي قلقًا؛ لأنه وأثناء وجوده في الحج قبل أكثر من خمسين سنة اشترى حطبًا من عند حطاب، إلّا أنه توانى في دفع المال للحطّاب، حتى توارى ذلك الحطّاب دون أن يعطيه قيمة الحطب، التي ربما لا تتجاوز بضعة ريالات وفقًا لأسعار تلك الأيام، يقول الرجل إنّه بات يعيش عذابًا نفسيًّا وتأنيب ضمير أقضّ مضجعه طويلًا؛ لأنه فوّت على ذلك الفقير حقّه.

إنّ الضمير يمثل محكمة داخلية مقرّها أعماق نفس الإنسان، لا مفرّ من مواجهتها. ولا يستثنى من مواجهتها أحد، حتى الطغاة والجبابرة الذين يمارسون البطش والقمع بحقّ الناس.

ومما يروي التاريخ أنّ الطاغية المعروف الحجاج بن يوسف الثقفي، حينما قتل التابعي الجليل سعيد بن جبير، لم تطل حياته من بعده، فكان بين الفينة والأخرى يفزع من نومه وهو يصيح: ما لي ولسعيد

بن جبير؟[١]، فهذه المحكمة تنبع من أعماق النفس، لا كالمحاكم الخارجية التي يمكن التفلّت منها على نحوٍ أو آخر.

وهناك شواهد كثيرة على هذا الصّعيد، ومن ذلك ما تتناوله وسائل الإعلام الأمريكية عن ظاهرة الانتحار في أوساط الجنود الأمريكيين، خاصة أولئك الذين شاركوا في حربي أفغانستان والعراق، حيث بلغ عدد المنتحرين منهم٦٢٥٦ جنديًّا[٢]، وهي الظاهرة الموضوعة قيد الدراسة منذ زمن، وقد كُتبت حولها أبحاث ودراسات، وعقدت بشأنها ندوات. وقد أظهرت الدراسات التي بحثت دوافع الانتحار عند هؤلاء الجنود، أنّ أكثرهم إما باشروا أعمال القتل استجابة لأوامر قادة العمليات، أو شهدوا ارتكاب فظائع أثناء تأدية الخدمة. إنّ هؤلاء الجنود، وبعد عودتهم للديار، بدأوا في التفكير، ولم تفارق أذهانهم تلك الفظائع، بل تحولت إلى كوابيس دائمة، كما يروي كثير منهم، ونتيجة لشدّة ما ينتابهم من عذاب الضمير، فإنّ بعضهم أصيب بأمراض نفسية، فيما لم يتردد آخرون في الإقدام على الانتحار.

من هنا، على الإنسان أن يحسب حسابًا لقوة الضمير والوجدان الكامنة في أعماقه. كما أنّ عليه أن يتذكر جيّدًا، إذا هَمَّ بالاعتداء أو النيل من أحدٍ، أنه سيدفع لقاء ذلك ثمنًا غاليًا، فقد لا يستطيع الضحية الاقتصاص لنفسه من المعتدي عليه، لكن قد ينبعث القصاص العادل

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي. البداية والنهاية، ، ج٩، ص١١٥.

(٢) http://www.cbsnews.com/news/the-veteran-suicide-epidemic

من أعماق الظالم نفسه، وأمام محكمة ضميره ووجدانه.

الوقوف بين يدي الله

أما المفرزة الثانية أمام منع الإفلات من العقاب، فهي الوقوف بين يدي اللّه تعالى في نهاية المطاف. فقد يفلت المرء من المحاسبة في الحياة الدنيا، نتيجة تبرئة نفسه على نحوٍ أو آخر، وربما لعجز المظلوم عن إثبات ظلامته، لكن ماذا يفعل المعتدي حين يقف بين يدي اللّه تعالى.

إنّ القرآن الكريم يذكر بحقيقة وجود المحكمتين والمفرزتين آنفتي الذكر. وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[سورة القيامة، الآيتان: ١-٢]، قال بعض المفسرين إنّ (لا) الواردة في الآيتين ربما جاءت زائدة، وبذلك يكون مقتضى الآية ﴿أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، فيما ذهب مفسّرون إلى أنّ (لا) هنا جاءت نافية، ومعنى ذلك أن الموضوع أوضح وأكبر من أن يُقسم عليه. وقد تناولت الآية الكريمة: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ المحكمة الأولى وموعدها القيامة ولقاء اللّه عزّ وجلّ، فيما تناولت الآية الأخرى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ المحكمة الثانية، وهي محكمة الضمير داخل النفس، أي اشتغال القوة النفسية على تأنيب وتوبيخ الإنسان حين يرتكب الخطأ.

وقد أوردت النصوص الدينية جوانب عديدة من شدّة التدقيق والمحاسبة على مظالم العباد في يوم الحساب. ومما روي أنّ رسول

اللّه ﷺ كان يتحدث يومًا مع أصحابه فقال: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ سَبْعُ عَقَبَاتٍ، أَهْوَنُهَا الْمَوْتُ، وَأَصْعَبُهَا الْوُقُوفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّـهِ تَعَالَى، إِذَا تَعَلَّقَ الْمَظْلُومُونَ بِالظَّالِمِينَ»[1]. ولا يظنّن أحدٌ بأنّ المقصود بالظالمين هنا أولئك الحكام الظلمة وحسب، إنّما قد يكون أيّ شخص عادي في مصافّ الظالمين، حين يضطهد ابنه أو يجور على زوجته، أو يظلم العامل الذي تحت سلطته، فهذا كلّه من الظلم ومما يجعل المظلوم يمسك بالظالم في يوم الحساب طالبًا بحقّه.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ﴾، قال: «قَنطَرَةٌ على الصِّراطِ لا يَجُوزُها عبدٌ بِمَظلِمَةٍ»[2]، إنّ أحدًا لن يجوز تلك العقبة على الصراط وفي ذمته مظلمة لأحدٍ، صغيرة كانت أم كبيرة، إلّا بعد أن يأخذ صاحب الحقّ حقّه منه. وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ اللّه تعالى: «أَقْسَمَ قَسَمًا عَلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: وعِزَّتِي وجَلَالِي لَا يَجُوزُنِي ظُلْمُ ظَالِمٍ»[3].

من هنا على الإنسان أن يكون حذرًا يقظًا لئلا يقع في ظلم أحد، على المستوى المادي أو المعنوي، حتى لا يدفع الثمن غاليًا، من تعذيب وتأنيب ضميره ساعة يستيقظ، وعند وقوفه بين يدي سبحانه وتعالى.

---

(١) كنز العمال، ج٣، ص٥٠٣، حديث٧٦٢٥.
(٢) بحار الأنوار، ج٨، ص٦٦، حديث٦.
(٣) الكافي، ج٢، ص٤٤٣، حديث١.

إحياء روح الأمل والرجاء

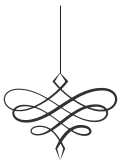

حين تبقى جذوة الأمل متقدة في نفس الإنسان فإنه يشعر بقيمته في هذا الحياة، ويندفع للعمل والتحرك في خدمة ذاته وتحقيق مصالحه، أما إذا خبت جذوة الأمل من نفسه، وأصابه اليأس والقنوط، فإنه يحكم على نفسه بالانتهاء والإلغاء؛ لأنّ طاقته تتجمد، وفاعليته تشلّ، وقد يدفعه اليأس للتوغل أكثر في الطريق الخطأ الذي سار عليه، لهذا يحتاج إلى روح الأمل في كل مجال من مجالات حياته، سواء الجانب الصحي أو الاقتصادي أو السياسي والاجتماعي، وكل ما له شأن مرتبط بحياته.

فروح الأمل عند الإنسان على الصعيد الصحي تدفعه للبحث عن علاج لما يلاقيه من أسقام، وبها يستطيع تجاوز الأمراض والتغلب على آلامها، وهذا أمر يؤكده العلماء والأطباء.

وفي المجال العلمي فإن الطالب الذي يدرس ولديه أفق مفتوح ويعيش الأمل، يجد ويثابر من أجل تحقيق آماله وتطلعاته، بخلاف

الطالب الذي يشعر بنوع من اليأس والإحباط فإن الأفق أمامه يكون ضيقًا، وسرعان ما يستسلم للانهزام والفشل والتقاعس في تحقيق النجاح. لذلك تجد هناك أعلامًا كان حالهم حال بقية الطلبة يدرسون نفس المناهج ولكن تميزوا بما عندهم من إصرار وروح أمل للمثابرة وتحقيق النجاح، فاخترعوا واكتشفوا وطوروا النظريات التي درسوها.

كتب بعض الناجين من كوارث الغرق: كنت أصارع الأمواج وكان زميلي بجانبي فكنت أشجعه على مصارعة الأمواج، والتحلي بالشجاعة، والتطلع إلى النجاة، لكنه كان يقول بأن الأمر قد انتهى ولا فرصة في النجاة. حاولت تشجيعه أكثر من مرة، لكنه كان مستسلمًا، فكان مصيره الغرق ومصيري النجاة.

شاهد آخر، ما يحدث في فلسطين، عقود من الزمن والفلسطينيون يعانون الضيم والاحتلال، والعالم كله يتآمر ضدهم، لكنهم لم ييأسوا بل ظلت جذوة الأمل متقدة في نفوسهم، واستمروا في مقاومتهم وصمودهم، وبدأ العالم يعترف لهم بتقرير المصير وقيام الدولة الفلسطينية.

في العلاقة مع الله تعالى

في مجال علاقة الإنسان بربه عز وجل، فإنه يحتاج إلى إبقاء جذوة الرجاء وقّادة في نفسه. الإنسان كبشر قد يسير في طريق الخطأ، فيعصي ربه، وإذا ما رأى العبد أن باب التوبة موصد في وجهه، ولا

مجال للتراجع، فإنه سيزداد في غيه وطيشه، وسينتابه شعور بالضياع والإهمال، لكن هذا العبد ما خُلق ليشقى. إنّ اللّه عز وجل رؤوف رحيم، بل هو أرحم الراحمين، لم يخلق العباد ليأنس بشقائهم، بل خلقهم وبيّن لهم طريق الهدى، وإذا ما ساروا في طريق الخطأ فإن ذلك لا يعني النهاية، بل يمكنهم الرجوع، وطَرق باب التوبة، والأمر متاح لهم ما داموا على قيد الحياة، لذلك يخاطب اللّه عباده بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [سورة الزمر، الآية:٥٣] يخاطبهم بخطاب فيه رقة وشفقة ولين: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ ولم يصفهم بالكفر والانحراف والمعصية.

وتستمر لغة الشفقة هذه في تبيين السبب: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ لم يحدثهم بالذنب والجرم والمعاصي، بل خاطبهم بالإسراف على أنفسهم، وفيه دلالة على الشفقة، ولم يقل أسأتم إليَّ بل إلى أنفسكم، لماذا أسأت إلى نفسك أيها العبد؟! عصيانك هذا يعود بالضرر عليك أنت، وليس على اللّه عزّ وجلّ، فلو أنّ كل العباد عصوا فإنّ ملك اللّه تعالى لن يتأثر بمقدار ذرّة، ومع ذلك يفتح لهم باب الأمل والرجاء: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللّه﴾ تعالوا واستغفروا عن كل ذنب ﴿إِنَّ اللّه يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وذلك لأنه ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

دور المبلغين في إشعال جذوة الأمل

الآية الكريمة توجه خطابها للنبي الأكرم محمد ﷺ (قل) يا محمد لعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ألّا يقنطوا من رحمتي فإني غفار

أغفر الذنوب جميعًا، لكن هذا الخطاب ليس خاصًّا برسول اللّه ﷺ، بل يتوجه لكل الدعاة والمبلغين الذين يحملون على عاتقهم واجب هداية الناس، وتبليغ أحكام اللّه تعالى، فإن عليهم إيقاد جذوة الأمل في نفوس الناس، عليهم أن يتعاملوا مع الناس باللين واللطف، لا بالقسوة والشدة، عليهم أن يرغبوهم للتوبة والعمل الصالح، لا أن ينفروهم ويرهبوهم. هذا ما تؤكد عليه الآية الكريمة وغيرها من الآيات.

ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّـهِ وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّـهِ وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ»[1] الفقيه هو العارف بمفاهيم الدين والمتحمل تبليغها، وعليه أن يكون متوازنًا في دعوته، فلا يبالغ في التحذير والتقريع فيسد أبواب الرجاء على من عصى جهلًا كان أو عمدًا. عليه أن يجعلها مفتوحة أمام الناس مهما كانت درجة السوء والخطأ في الطرف الآخر.

لذلك يؤخذ على بعض الجهات الدينية في تعاملها مع الشباب سيما في هذا العصر، الخطاب العنيف الجاف، والنظرة الشزراء، والشدة في التعامل، وهذا يعمق المشكلة ويكرسها في المجتمع؛ لأنّ الشباب والناس بشكل عام يحتاجون إلى حديث يستقطب مشاعرهم، ويعطيهم الأمل للفوز بجنات الآخرة، والسعادة في الدنيا.

كان من وصايا أمير المؤمنين علي عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «أي

(١) نهج البلاغة. حكمة ٩٠.

بني، لا تؤيس مذنبًا، فكم من عاكف على ذنبه ختم له بخير، وكم من مقبل على عمله مفسد في آخر عمره، صائر إلى النار نعوذ باللّه منها»[١] مهما كان هذا الإنسان مذنبًا لا تشعره باليأس وكأنه الطريق الذي لا رجعة فيه، هناك من سار على هذا الدرب وختم له بخير، كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ»[٢].

لذلك على الإنسان أن يكون يقظًا دائمًا، وألّا يتمادى في عصيانه ما دام باب التوبة مفتوحًا أمامه، فاللّه تعالى يباهي ملائكته بعبده التائب، ويفرح به، كما جاء عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «اللّه أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضّال الواجد، ومن الظمآن الوارد»[٣] وذلك لأن اللّه يريد الخير والسعادة لعباده، لا شقاءهم، وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «إن اللّه تعالى أشدّ فرحًا بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فاللّه أشدّ فرحًا بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها»[٤].

على المبلغين أن يفتحوا أبواب الأمل في النفوس، وعلى الناس ألّا يحكموا على غيرهم، فاللّه تعالى، ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾

(١) ابن شعبة الحراني. تحف العقول، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ، ص ١٠٠.
(٢) الكافي، ج ٢، ص ٤٣٥.
(٣) كنز العمال، ج ٤، ص ٢٠٥.
(٤) وسائل الشيعة ج ١٦، ص ٧٣.

ورد عن جندب الغفاري أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن رجلًا قال يومًا: واللّه لا يغفر اللّه لفلان. فقال اللّه عزّ وجلّ: من ذا الذي تألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عمل المتألي بقوله: لا يغفر اللّه لفلان»[١].

وقيل إنّ مجوسيًا استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فقال: إن أسلمت أضفتك، فمرّ المجوسي، فأوحى اللّه تعالى إليه: يا إبراهيم، لم تطعمه إلّا بتغيير دينه، ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك؟ فمرّ إبراهيم يسعى خلف المجوسي، فردّه وأضافه، فقال له المجوسي: ما السبب فيما بدا لك، فذكر له، فقال له المجوسي: أهكذا يعاملني؟ ثم قال: أعرض عليَّ الإسلام فأسلم[٢].

وقد وجدنا كثيرًا من الشباب حينما تتاح لهم الفرصة بمرشد يفتح لهم قلبه يتحولون من شباب مجرمين إلى قادة للشباب المؤمن التائب.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص٣٣٦.

(٢) أبو حامد الغزالي. إحياء علوم الدين، ج٤، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، (بيروت: دار الهادي)، ص٢٢٥.

لا لليأس والقنوط

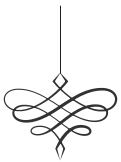

يتمنّى الإنسان أن تكون حياته قطعة من السرور والنجاح، وألّا تواجهه العراقيل والصعوبات، لكن هذه أمنية وهمية زائفة، فطبيعة الحياة منطوية على وجود المشاكل والتحديات، وذلك من حكمة اللّه تعالى، وهي اختبار الإنسان في هذه الحياة، لصقل شخصيته، وإظهار ما في داخله من كفاءات وقدرات، وليكتشف قوته وطاقته ومؤهلاته التي منحه اللّه تعالى إيّاها.

لذا على الإنسان حين يواجه الصعوبات والمشاكل، أن يعرف أن ذلك من طبيعة الحياة، وعليه أن يتحدّى هذه الصعوبات لينجح في الامتحان.

البعض من الناس بسبب الغفلة وعدم الوعي، تسودّ الدنيا في عيونهم حين يواجهون صعوبة ما. وحين يتّجه الإنسان إلى عقله، ويُفكّر تفكيرًا سليمًا، فإنه سيدرك أن هذه التحديات من أجل أن تُظهر إنسانيته، وما يختزنه من كفاءات وقدرات. وعليه أن يوجّه لذاته نداءً

صارخًا، بألا يسمح للهزيمة واليأس أن يدخلا إلى أعماق نفسه؛ لأنّ ذلك هو غاية الشيطان، بينما يُريد اللّه سبحانه للإنسان أن ينفتح على آفاق الأمل، وفضاءات الرجاء، وأن يتحلى بالتفاؤل، مهما كانت العقبات والصعوبات. فالإنسان أكبر من المشاكل التي تواجهه، وأعظم من التحدّيات التي تقف في وجهه، ولتحقيق ذلك على الإنسان أن يعرف نفسه، وهنا تكمن المشكلة فإنه غالبًا ما يجهل نفسه، لذا ورد في الحديث عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»(١).

والقرآن الكريم يُشير إلى هذه الحقيقة، يقول تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [سورة فصلت، الآية:٤٩]، فمن طبيعة الإنسان أنه يتمنى لنفسه الخير دائمًا، وألا يرى مكروهًا في حياته أبدًا، ورد عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «اَلرَّاحَةُ لَمْ تُخْلَقْ فِي اَلدُّنْيَا، وَلاَ لِأَهْلِ اَلدُّنْيَا، إِنَّمَا خُلِقَتِ اَلرَّاحَةُ فِي اَلْجَنَّةِ، وَلِأَهْلِ اَلْجَنَّةِ»(٢).

فعلى الإنسان ألا يسمح لثقافة اليأس والإحباط أن تُسيطر على نفسه وأجوائه؛ لأن ثقافة اليأس والقنوط تمنع الإنسان من أن يتوجّه إلى ذاته، لتفجير طاقاته وكفاءاته. وذلك حين يرى أن لا مجال لمعالجة التحدّيات التي يواجهها، بينما المعالجة موجودة، وكلّ ما يحتاج إليه هو التفكير والسعي، لكن اليأس والإحباط يمنع الإنسان من التفكير، كما

(١) ابن أبي جمهور الأحسائي. عوالي اللئالي، ج ٤، ص١٠٢.
(٢) الشيخ الصدوق، الخصال، ص٦٤.

يمنعه من السعي. والقرآن الكريم يؤكد أن اليأس ضربٌ من ضروب الكفر، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾. فمن يؤمن باللّه الرؤوف، الرحيم، القدير، فإن اليأس لا يُسيطر على قلبه أبدًا.

ومن يقدمون على الانتحار، أو يُصابون بالعقد النفسية، إنما ذلك لسيطرة اليأس والقنوط على نفوسهم. وكذلك من يعيشون الضعف والهوان؛ لأنهم فقدوا ثقتهم بأنفسهم على مواجهة الظروف التي يعيشونها. وهذا الواقع ترفضه التعاليم الدينية للإنسان المؤمن، وخصوصًا تلك الأجواء السلبية التي تبعث على السأم واليأس، وقد ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «يَبْعَثُ اَللَّـه اَلْمُقَنِّطِينَ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ مُغَلَّبَةً وُجُوهُهُمْ، يَعْنِي غَلَبَةَ اَلسَّوَادِ عَلَى اَلْبَيَاضِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَؤُلاَءِ اَلْمُقَنِّطُونَ مِنْ رَحْمَةِ اَللَّـهِ تَعَالَى»[1].

نشر ثقافة الأمل

ينبغي للمجتمع أن يأخذ الحذر والحيطة من أن تنتشر ثقافة اليأس والقنوط في جيل الشباب؛ لأنّ الشاب يعيش بالأمل والتطلّع، وإشعاره بالإحباط يجعل الأبواب مؤصدة أمامه، وقسم كبير من المشاكل التي تواجه الشباب اليوم إنما هي نتيجة لحالة الإحباط.

علينا أن نحمل رسالة الأمل للناس، فحين نرى إنسانًا يواجه تحدّيًا

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص٥٥.

كبيرًا، أو مرضًا عصيبًا، يتوجّب علينا أن نرفده بالأمل؛ لأن القنوط يُهلك الإنسان، يقول الإمام علي عليه السلام: «قَتَلَ اَلْقَنُوطُ صَاحِبَهُ»[1]. وعلى العكس من ذلك فإن الأمل يبعث على النجاح، يقول الإمام علي عليه السلام: «تَفَأَّلْ بِالْخَيْرِ تَنْجَحْ»[2].

والتفاؤل والأمل لا يعني الخمول والكسل، إنما يعني الدافعية للعمل، والسعي من أجل النجاح.

واللّه تعالى إنما خلقنا في هذه الحياة ليرحمنا، يقول تعالى: ﴿إِلاّ مَن رّحِمَ رَبّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، أما الصعوبات والتحدّيات فهي تصقل شخصية الإنسان، وتُظهر الطاقات والكفاءات الكامنة في نفسه، وبمجرد تجاوز هذه العقبات يجد الإنسان نفسه أمام تساؤل خطير، وهو: كيف تجاوزت هذه المِحن وقد كنت حينها أقترب من اليأس؟!

وأخيرًا، فإن التحدّيات قد تفتح طريق الخير والسعادة للإنسان، لذا فإننا نجد أولياء اللّه حين نزول البلاء يزداد تفاؤلهم، وهذا سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام، عند أحلك اللحظات يُناجي اللّه تعالى قائلًا: «رِضًا بِقَضَائِكَ، وَتَسْلِيمًا لِأَمْرِكَ، لاَ مَعْبُودَ سِوَاكَ»، هكذا هي قلوب المؤمنين الصالحين تكون عامرةً بالثقة باللّه، والأمل في رحمته.

---

(١) عبد الواحد الآمدي التميمي. غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) المصدر نفسه.

الوسوسة وضررها على الإنسان

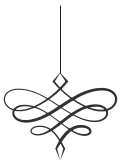

لِحُبِّ الإنسان لذاته واهتمامه بحمايتها والدفاع عنها، فإنه عند الشعور بخطر يبحث عن ملجأ ينجيه منه. ومن الأخطار التي يواجهها الإنسان ـ وهذا من عجيب خلقته ـ تلك الأخطار التي من داخل نفسه، وهي حالات تحصل في نفسه تخيفه وتؤذيه، فيبحث عن مأمن وملجأ يحميه منها مع أنها في داخله. ومن تلك الحالات المخيفة حالة الوسوسة، وهي حالة نفسية مزعجة يطلق عليه علماء النفس مصطلح: (العصاب القهري) أو (الاضطراب الوسواسي الجبري). وقد وضع فرويد أول وصف متكامل للعصاب القهري في كتابه (مقدمة عامة للتحليل النفسي) عام ١٩١٧م، بقوله: «ينشغل عقل المريض بأفكار غير سارة، ويشعر باندفاعات تبدو غريبة بالنسبة إليه، وأنه مدفوع ليؤدي أعمالًا لا تسرّه، وليس لديه القدرة على الامتناع عنها، وقد لا يكون للأفكار والوسواس معنى في ذاتها، لكنها مع ذلك، أفكار مثابرة ومسيطرة على عقل المريض دائمًا».

فما هو السبيل لمقاومة هذه الحالة المزعجة، وإلى من يلجأ الإنسان؟

في سورة الناس، يأمر اللّه سبحانه وتعالى نبيه المصطفى وجميع العباد، أن من أراد اللجوء إلى جهة تحميه من حالة الوسوسة فعليه أن يلجأ إلى اللّه تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

العوذ يعني اللجوء والقصد، وإنما توجه الأمر لرسول اللّه ﷺ وهو أكمل خلق اللّه عزّ وجلّ، ليشعرنا بأن أيّ إنسان في أيّ مقام كان فهو في حاجة للجوء إلى اللّه تعالى، هذا اللجوء يستبطن أمرين:

الأول: الشعور بالحاجة، فهو يواجه خطرًا أمامه ويحتاج من يحميه منه.

والأمر الآخر: الشعور بالثقة للجهة التي يلجأ إليها، وأنها قادرة على حمايته، ولا شك أن القدرة المطلقة بيد اللّه تعالى. الإنسان إنما يلجأ إلى الرب المدبر لشؤون الناس ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾ إلى من يملك أزمة حياة الناس والكون ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ إلى الذي يجب أن يخضع له جميع الخلق بالعبادة والطاعة ﴿إِلَـٰهِ النَّاسِ﴾. من ماذا يلجأ إلى هذه القوة الربانية؟ ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾.

الوسواس: كما يعبر عنه في اللغة هو الصوت الخفي، وهو يطلق على حديث النفس، كالخواطر والأفكار التي تعتمل في النفس.

الخنّاس: من الخنس، أي الاختفاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ أي النجوم التي تختفي بعد أن تظهر للناس في الليل. والواضح أن حالة (الوسواس) يكون ظهورها فترة في نفس الإنسان واختفاؤها عنه أوقات أخرى، فهي ليست حالة ثابتة في الغالب، ولهذا عبر عنها عزّ وجلّ ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾.

هذه الحالة المرضية التي تعني في معناها الأعمّ الأفكار المزعجة وغير السوية، قد تأتي من جهات غير واضحة، أو من أناس يعيشون حول الإنسان ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

حالة الوسوسة التي تحدث داخل نفس الإنسان وعمقه، لا يمكن التخلص منها إلّا باللجوء إلى الخالق عزّ وجلّ، فهو موجِد الإنسان والعالم بخفاياه، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. لذلك يعوذ الإنسان باللّه تعالى من شرّ هذه الأفكار وهذه الهواجس التي تسيطر عليه.

والاستعاذة لا تعني التلفظ بقول أعوذ باللّه فقط، وإنما هي حالة فكرية ونفسية وسلوكية، وعلى الإنسان أن يتجه بكل ذلك إلى اللّه تعالى، مؤتمرًا بأوامره، منتهيًا عن نواهيه، حتى يتغلب على هذه الحالة.

الوسوسة الفكرية

في بعض الأحيان قد يواجه الإنسان وسوسة فكرية، فتكون عنده تساؤلات حول العقيدة والدين، حول اللّه عزّ وجلّ، وعلى الإنسان ألّا

يهتم بمثل هذه الأفكار كما تشير إلى ذلك النصوص الدينية، جاء عن محمد بن حمران قال: سألت أبا عبداللّه جعفر الصادق عن الوسوسة ـ والقصد هنا الوسوسة الفكرية ـ وإن كثرت؟ فقال: «لا شيء فيها، تقول لا إله إلا اللّه»[١].

البعض ينزعج كثيرًا من هذه الحالة، ويتساءل: لماذا تأتيني هذه الأفكار التي تشككني في ديني ومعتقدي، أفكار حول اللّه تعالى، حول المعاد، حول النبوة أو الإمامة؟!

هذه الأفكار إذا كانت تعبّر عن تساؤل معرفي فعلى الإنسان أن يبحث ويتعلم ليصل بالدليل والبرهان إلى الحق، ولكنها إذا كانت مجرد هواجس وخواطر تزعج ذهن الإنسان، فعليه ألّا يكترث بها.

جاء عن جميل بن دراج عن أبي عبداللّه جعفر الصادق عليه السلام قال: قلت له: إنه يقع في قلبي أمر عظيم فقال: «قل لا اله إلا اللّه». قال جميل: فكلما وقع في نفسي شيء قلت: لا اله إلا اللّه فيذهب مني[٢].

الوسوسة العبادية

يُبتلى الإنسان بعض الأحيان بالشك في الأعمال التي يتقرب بها إلى اللّه عزّ وجلّ، فيشك في صحة وضوئه، أو غسله، أو صلاته، وعلى الإنسان في مثل هذه الحالات أن يتحصن بالإرادة والتوكل على اللّه

(١) الكافي، ج ٢، ص ٤٢٤، حديث١.
(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٢٤، حديث٢.

تعالى، وألّا يهتم لهذا الأمر، فإن الخضوع للوسوسة حرام كما يقول العلماء والفقهاء.

ومطلوب من الإنسان الذي يكثر شكه أن يبني على الصحة، حتى لا تتكرس عنده هذه الحالة، فهي من الشيطان، كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا تعوّدوا الخبيث من أنفسكم بنقض الصلاة فتطمعوه، فإن الشيطان خبيث يعتاد لما عوّد، فليمضِ أحدكم في الوهم، ولا يكثرنّ نقض الصلاة، فإنه إذا فعل ذلك مرات لم يعد إليه الشك»، قال زرارة: ثم قال: «إنما يريد الخبيث أن يطاع فإذا عصي لم يعد إلى أحدكم»[1].

أحد العلماء جاءه شخص كثير الشك في الصلاة وشكا له ذلك، فقال له: اِنوِ أن تصلي هذه الصلاة التي تعتقد بطلانها قربة إلى اللّه تعالى وأكملها، فإن اللّه تعالى يقبلها منك ولا يقبل منك الإعادة والوسوسة.

الخضوع للوسوسة حرام، حيث يحوّل الدين إلى عقدة، والدين يسر، والصلاة مجال لراحة النفس واطمئنانها بذكر اللّه ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»[2]، ولكن الشيطان يريد أن يحوّل هذه الراحة إلى حالة مزعجة مَرَضية.

في بعض الأحيان بسبب أجواء يعيشها الإنسان تصيبه هذه الحالة المَرَضية، وقد لاحظت أن بعض من يؤدون الحج تصيبهم حالة الشك

---

(١) الكافي، ج ٣، ص ٣٥٨.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج ٥، ص ٣٦٤.

بعد عودتهم من أداء مناسكه، ويبدو لي أن ذلك بسبب التشدد في طريقة التعليم لمسائل طريقة الصلاة والغسل والأعمال الواجبة، وإذا كان هذا التعليم غير واعٍ فقد يكون سببًا لابتلاء المؤمن بهذه الحالة المَرَضية. وهذا لا يجوز؛ لأن الدين يسر وليس عسرًا.

الوسوسة الاجتماعية

هي الشك في التعامل مع الناس، حتى القريبين، وقد تحصل هذه الحالة بين الزوجين، فتنشأ حالة من التجسس والتدقيق في توافه الأمور بسبب الشك. وهذه حالة مَرَضية ينبغي الاستعاذة باللّه منها، وعلى الإنسان أن يتعامل بحسن الظن مع الناس، ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «سُوءُ اَلظَّنِّ يُفْسِدُ اَلْأُمُورَ، وَيَبْعَثُ عَلَى اَلشُّرُورِ»[1]، وعنه عليه السلام: «لَا إِيمَانَ مَعَ سُوءِ ظَنٍّ»[2].

الأصل في التعامل هو البناء على الصحة في أعمال الآخرين. حتى في قضايا الأكل، الحلال والحرام، فما يباع في أسواق المسلمين يبنى فيه على الصحة والحلية، إلّا أن يعلم العكس، ولا يحتاج إلى البحث والسؤال، عن أبي بصير قال: سألت الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن الرجل يأتي السوق فيشتري جبة فراء لا يدري أذكية هي أم غير ذكية (أي من جلد حيوان مذكى أم لا) أيصلي فيها؟ فقال: «نعم ليس عليكم المسألة»،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٢) المصدر نفسه.

ويضيف الإمام: «إن أبا جعفر يعني أباه كان يقول: إن الخوارج ضيّقوا على أنفسهم بجهالتهم، إن الدين أوسع من ذلك»[١].

إذًا على الإنسان أن يلجأ إلى اللّه تعالى بفكره ومشاعره وسلوكه، حتى يأمن من هذه الحالة التي يعاني منها في داخل نفسه.

(١) الشيخ الطوسي. تهذيب الأحكام، ج ٢، ص ٣٦٨، حديث١٥٢٩.

الفصل الثاني

تأملات في الذات

الانفتاح على الذات

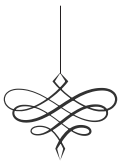

في كثير من الأحيان يهتمّ الإنسان بعلاقاته مع الآخرين، ويهمل علاقته مع ذاته، مع أن هذه العلاقة تعدّ من أهم العلاقات الأساسية التي ينبغي أن يهتمّ بها.

وعندما نتحدّث عن الاهتمام بالذات، لا نقصر الحديث على الاهتمام بالبنية الجسمية، من حيث الغذاء واللباس والمسكن، وسائر الحاجات المادية والملذات. ذلك أن الجسم جزء من ذات الإنسان، لكنه الجزء المنفعل من الذات، وليس الجزء الفاعل، والجزء المتأثر لا المؤثر. ففي الإنسان ما هو فاعل ومسيِّر له، وهو الجانب الأهمّ في تكوينه الذاتي، والمقوِّم الحقيقي لذاته.

إننا عندما نريد أن نتحدّث عن ذات الإنسان، يمكننا القول بأن الذات هي ذلك الكيان الداخلي الذي يسيِّر الجسد، وهو ما يشكّل مجموع الأفكار والقناعات التي يؤمن بها الإنسان، والأحاسيس والمشاعر التي

ينطوي عليها، وما ينبثق منهما من سلوك وممارسات.

إنَّ عُمْقَ الذات هو تلك القناعات والمشاعر، والجسم يتأثر بما يعيشه الإنسان من أفكار ومشاعر جيّاشة، فهي تحركه وتسيّره.

لذلك، فإن الشريعة الإسلامية عندما توجّه الإنسان إلى الاهتمام بذاته، عليه أن يتوجّه إلى هذا الجزء من الذات.

ولكن.. كيف يهتمّ الإنسان بذاته؟

إنّ القرآن الكريم يتحدّث كثيرًا حول هذه المسألة، فيقول جلّ شأنه: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، فالإنسان مسؤول عن ذاته بالدرجة الأولى، وهذه الذات هي ما يمكن وصفها بالضلال والهدى، ولم تعبر عن البنية الجسمانية للإنسان، وإنما عمّا يحرك هذه البنية ويوجهها، وهي الأفكار والمعتقدات، حيث هي ما يوصف بالضلال والهداية.

وفي آية أخرى يقول عزّ وجلّ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ﴾[سورة الأعراف، الآيتان: ٨ - ٩].

إن الحديث عن ربح أو خسران النفس الإنسانية، في المنظور القرآني يكون بميزان الأفكار والمعتقدات، وما يوجّه السلوك، وليس بالمقياس المادي الحسي.

وفي آية ثالثة يوجّه القرآن الكريم الإنسان إلى أن يحمي نفسه بالدرجة الأولى، فيقول جلّ وعلا: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، ووقاية النفس ـ هنا ـ تكون عبر إبعادها عن مسبّبات الهلاك، وهي هنا لا تبتعد عمّا نحن بصدد بيانه من ضرورة الاهتمام بالذات، من حيث المعتقد وسلامة الفكر والسلوك.

العلاقة الصحيحة مع الذّات

العلاقة الصحيحة مع الذات يمكن تحقيقها من خلال أمورٍ عدّة، منها:

أولًا: التفرغ للذات والخلوة بها

الإنسان غالبًا ما يعيش مع الآخرين، ومع ما حوله من طبيعة. والنصوص الدينية تدفع الإنسان إلى أن يخصّص له وقتًا ينفرد فيه بذاته، فلا ينشغل بأمور أخرى. وهذا ما نجده في عبادة الاعتكاف مثلًا، حيث يمثّل التأمل والخلوة مع الذات فيها جانبًا مهمًّا. والاعتكاف من العبادات الراجحة والمستحبة التي كانت شبه مغيبة في مجتمعنا، إلى أن بادر بعض المؤمنين في السنوات الأخيرة بالتوجّه إلى إحياء هذه الشعيرة.

الإنسان الذي يعتكف، يذهب إلى المسجد، ليبقى فيه ثلاثة أيام، لا يخرج إلّا للضرورة، ويكون صائمًا في النهار، منشغلًا بالعبادة والدعاء وتلاوة القرآن الكريم.

من فلسفة هذه العبادة أن الإنسان يبتعد عن الانشغالات الأخرى، ويتفرغ لذاته، وذلك حينما يكون في المسجد منقطعًا عن المنزل والناس، وهي عبادة تشبه ـ من حيث الروحية في تشريعها ـ صلاة الليل والمناجاة، اللتين هما خلوة مع الذات. فالإنسان بعد منتصف الليل، ينتصب ليقف بين يدي اللّه سبحانه وتعالى، بعيدًا عن الناس، والاهتمامات المادية المختلفة، ليتفرغ لذاته.

كثير من الناس يأنس حينما يكون مع الآخرين، كما أن الإنسان ـ بطبيعته ـ يأنس بالملذات، لكن الأولياء حقًّا يأنسون بإقبالهم على اللّه ومناجاته، وهذا الأُنس في حقيقته هو تفرغ للذّات، واهتمام بها، وإحضار لها بين يدي اللّه سبحانه وتعالى.

ثانيًا: قراءة الذات وتأملها

ذات الإنسان التي تعني أفكاره وآراءه، وأحاسيسه ومشاعره، تستحقّ منه أن يتأمّل فيها ويقرأها جيِّدًا، فقد ورد عن رسول اللّه ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1]، فهي دعوة إلى الإنسان لمعرفة نفسه، وقراءتها بتأمّل، إذْ على الإنسان أن يجلس مع نفسه ليعرف خباياها وزواياها المتعدّدة.

فكما أن الإنسان يشغل ذهنه وتفكيره في العديد من القضايا، عليه أن يشغل ذهنه بالتفكير حول أحاسيسه ومشاعره الداخلية، وصفاته النفسية.

---

(١) عوالي اللئالي، ج ٤، ص١٠٢.

إن علماء النفس والاجتماع ـ الآن ـ يحولون هذه القضية إلى عمل خارجي، فتجدهم في عياداتهم النفسية، يقومون بتعبئة بعض النماذج المليئة بالأسئلة حول ذات الإنسان، فيكتشفون ـ من خلالها ـ العديد من سلوكياته وخلفياتها الذهنية والنفسية، وذلك حينما يواجه الإنسان بعض الأحداث، أو تتغير عليه بعض السلوكيات اللافتة. إنها صورة من صور قراءة النفس، واللّه سبحانه يطلب من الإنسان أن يبادر بقراءة نفسه، وأن يجعل هذه النفس واضحة في معالمها أمام عينيه، وذلك بأن يسأل نفسه ـ كما يستفاد هذا من بعض الروايات ـ: ماذا لو مِتُّ بعد خمس دقائق من الآن؟ ما هو مصيري؟ أإلى الجنة أم إلى النار؟ إن هذا السؤال سيثير في نفسه دافعًا لوضع تصوّر عام عن شخصيته، التي على أساسها سيتحدّد مصيره.

وفي موقف آخر قد يوجه بعضنا إلى نفسه هذا السؤال: ماذا لو كان الإمام المعصوم حاضرًا وطلب مني أن أتجرد عن جميع أملاكي وبيتي، ماذا سأفعل؟ وماذا لو طلب مني أن أتقدّم إلى الجهاد والقتال، ماذا سأفعل؟، أو: ماذا لو وصلني خبر معيّن ثقيل على نفسي، كيف سأتصرف؟، علينا جميعًا أن نضع هذه الأسئلة أمام أنفسنا، فهي ستعيننا على قراءة ذواتنا.

من لا يقرؤون أنفسهم قد لا يعرفون كيف يتصرفون إذا واجهتهم بعض المشكلات، فالبعض قد ينهار لمجرّد تعرّضه لأقل هزّة، لأنه لم يُعِدَّ نفسه جيّدًا لمواجهتها، فهو لم يقرأ نفسه سابقًا، بل كان منشغلًا

بأمور كثيرة، منشغلًا بالأسهم وما يجنيه من أرباحها، ولا يشغل ذهنه بما عليه من تصرّف لو هبطت قيمة هذه الأسهم، فذهبت معها نصف أمواله.

بعض الناس يعيشون دائمًا حالة التبرير لأوضاعهم، وهي حالة سلبية، لا تجعل الإنسان مندفعًا نحو تطوير ذاته، أو الوقوف منها الموقف السليم، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾[سورة النجم، الآية: ٣٢]، إن مَن يبرر لنفسه دائمًا، هو في الواقع يخدع نفسه ويضرّها، فالمنهج القرآني يوصي الإنسان أن يكون مع نفسه لوَّامًا: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[سورة القيامة، الآيتان: ١ ـ ٢]، ويؤيد هذا المنهج ما ورد عن رسول اللّه ﷺ: «حاسبو أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا»(١)، وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم وليلة»(٢).

ثالثًا: الجرأة في اتخاذ القرار مع الذات

وذلك بتغيير بعض طبائع الذات في عاداتها، أو بعض أفكارها، وهذا من أصعب الأمور. فمن يعتنق فكرة معينة مدّة من الزمن، يصعب عليه أن يغيّرها، ومن لديه سلوك وطبيعة، ربما يكون تغييرها عليه أصعب. لكنّ هذا هو الامتحان الأكبر، بأن يغير الإنسان بعض طبائعه أو أفكاره،

(١) بحار الأنوار، ج٦٧، ص٧٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٦٨، ص٢٥٩.

لمصلحة ذاته ومن أجلها.

وما تؤكّده النصوص الدينية هو أهمية ترويض وتهذيب النفس إلى ما يصلحها، يقول في ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ»[١].

كما يقول في موضع آخر: «أَعْجَزُ اَلنَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنْ إِصْلاَحِ نَفْسِهِ»[٢]، فمن كان في نفسه خلل ويعجز عن إصلاحه، فذلك من أشدّ أنواع العجز.

وفي كلمة أخرى يقول عليه السلام: «سِيَاسَةُ اَلنَّفْسِ أَفْضَلُ سِيَاسَةٍ»[٣]، بمعنى: أن أفضل سياسات التعامل، هي سياسة التعامل مع النفس وإدارتها. ويقول عليه السلام: «كُلَّمَا زَادَ عَلْمُ اَلرَّجُلِ زَادَتْ عِنَايَتُهُ بِنَفْسِهِ وَبَذَلَ فِي رِيَاضَتِهَا وَصَلاَحِهَا جُهْدَهُ»[٤].

(١) نهج البلاغة، خطبة ٤٥.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.

تصفية الرغبات والتوجهات

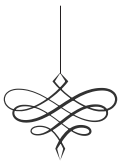

كلّ عمل يقوم به الإنسان من خير أو شرّ يبدأ برغبة تعتمل في نفسه أو خاطرة تجول في فكره، فإذا تفاعل الإنسان مع تلك الرغبة، وتجاوب مع تلك الخاطرة، وأخذ يفكر في تحقيقها ويتخيل صور تنفيذها، عندها يندفع لتحويل تلك الرغبة والخاطرة إلى عمل وممارسة.

لذلك ورد عن علي عليه السلام أنه قال: «اَلأعْمالُ ثِمارُ النِّيّاتِ»[1].

البداية هي النية وثمرتها العمل، سواء في مجال الخير أو الشرّ، عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُسِرُّ خَيْرًا إِلَّا لَمْ تَذْهَبِ الْأَيَّامُ حَتّى يُظْهِرَ اللّهُ لَهُ خَيْرًا، وَمَا مِنْ عَبْدٍ يُسِرُّ شَرًّا إِلَّا لَمْ تَذْهَبِ الْأَيَّامُ حَتّى يُظْهِرَ اللّهُ لَهُ شَرًّا»[2].

مع مرور الوقت تتحول النية والرغبة إلى عمل خارجي، ولهذا

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص١٩، حكمة ٧٤.

(٢) الكافي، ج٢، ص٢٩٥.

يشجع الدين على توفر النية الصالحة بشكل دائم، بحيث يرغِّب الإنسان نفسه في عمل الخير والصلاح، وأن ينوي القيام بأعمال الخير حتى وإن لم يكن قادرًا على فعل الخير بشكل فوري، حتى تكون نفس الإنسان عامرةً بنية الخير، وتفكيره متجهًا صوب العمل الصالح بشكل دائم، وهذه النية تتحقق في يوم من الأيام، أو تكون أقرب إلى التحقق، وفي الروايات أنّ اللّه تعالى يكتب للإنسان ثواب عمل الخير الذي نوى، حتى وإن لم يفعله، فمجرد نية عمل الخير ينال بها الإنسان الأجر والثواب.

في رواية عن الإمام الرضا عليه السلام: «يَقولُ اللّهُ لِلمَلائِكَةِ: هَلُمُّوا الصُّحُفَ الَّتي فيهَا الأَعمالُ الَّتي لَم يَعمَلوها ـ قالَ: ـ فَيَقرَؤونَها، ثُمَّ يَقولونَ: وعِزَّتِكَ إنَّكَ لَتَعلَمُ أنّا لَم نَعمَل مِنها شَيئًا، فَيَقولُ: صَدَقتُم؛ نَويتُموها فَكَتَبناها لَكُم، ثُمَّ يُثابونَ عَلَيها»[1].

ينوي المؤمن أن يبني مسجدًا ويؤسّس مدرسةً ويزوِّج الشاب الأعزب، وقد لا يتمكن من تحقيق هذه النية، لكنه يجد ثواب ذلك كلّه في سجل أعماله الصالحة يوم القيامة!!

هذا كرم اللّه ورحمته ولطفه، وما على الإنسان إلّا أن يعزم على عمل الخير.

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٠٤.

عن الإمام علي عليه السلام: «إِحْسَانُ النِّيَـةِ يُوجِبُ المَثُوبَةَ»(١).

وفِي حديث مروي عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «مَنْ أتى فِراشَهُ وهُو يَنوي أنْ يَقومَ يُصَلِّي مِن اللَّيلِ فغَلَبَتهُ عَيناهُ حتّى أصبَحَ كُتِبَ لَهُ ما نَوى، وكانَ نَومُهُ صَدَقَةً عليهِ مِن رَبِّهِ»(٢).

فالنية الصالحة مقدرة عند اللّه تعالى، في مختلف مجالات العبادة والإنفاق، وعمل الخير بشكل عام، لا تحدّها حدود، بما يحفز الإنسان على الانطلاق في آفاق الحياة الرحبة.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَتَرِدُ عَلَيْهِ الْحَاجَةُ لِأَخِيهِ، فَلَا تَكُونُ عِنْدَهُ، فَيَهْتَمُّ بِهَا قَلْبُهُ، فَيُدْخِلُهُ اللّهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالى ـ بِهَمِّهِ الْجَنَّةَ»(٣).

عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ الْفَقِيرَ لَيَقُولُ: يَا رَبِّ ارْزُقْنِي حَتّى أَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْبِرِّ وَوُجُوهِ الْخَيْرِ، فَإِذَا عَلِمَ اللّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ذلِكَ مِنْهُ بِصِدْقِ نِيَّةٍ، كَتَبَ اللّهُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ مَا يَكْتُبُ لَهُ لَوْ عَمِلَهُ؛ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ كَرِيمٌ»(٤).

يحدث أن يشكو لك أحدهم ما يعانيه من ضيق ذات اليد، وحاجته لبناء بيته، أو تزويج أبنائه، وهنا يكون موقفك بين أمرين: إما أن تتجاهل

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٧٢، حكمة ٤.
(٢) أحمد بن شعيب بن علي النسائي. السنن الكبرى للنسائي، كتاب الْأَمْرُ بِالْوِتْرِ، حديث ١٤٣٩.
(٣) الكافي، ج٢، ص١٩٦، حديث١٤.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٨٥، حديث٣.

حديثه، وترى أنه في غير محله وتستنكر طلبه، أو تعزم في نفسك وتتمنى مساعدته، وتقول: يا ربّ، لو كان عندي من الخير لوقفت إلى جانبه وأعنته.

فعلى الإنسان أن ينوي أعمال الخير، ويجعل نفسه عامرة بمقاصد الخير، في العلاقة مع اللّه، وفي التعامل مع الناس.

عن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ يُحِبُّ أنْ تَكُونَ نِيَّةُ الإنْسانِ لِلنّاسِ جَمِيلَةً، كَما يُحِبُّ أنْ تَكُونَ نِيَّتُهُ في طاعَتِهِ قَوِيَّةً غَيْرَ مَدْخُولَة»[1].

آثار نيّة الشر

في المقابل على الإنسان ألّا يفسح المجال في نفسه لنمو رغبات السوء، ذلك أنّ مرور تلك الرغبات على شاشة النفس أمر طبيعي، بسبب النزعات الشهوانية عند الإنسان، لكنه تارة ينمّي تلك الرغبة السيئة في نفسه، بالتفكير المستمر فيها، وتخيلها، وتمنّي تحقيقها، وهنا يكون أقرب للوقوع في السوء، وتارة أخرى يكون يقظًا فيحاصر تلك الرغبات السيئة، فبمجرد أن تبدو في نفسه يكبحها ويصرف فكره عنها، ويستحضر سوءَها، وبذلك ينجو من الوقوع فيها.

إنّ اللّه بلطفه ورحمته لا يحاسب الإنسان على نيته السيئة، أما النية الحسنة فيكتب له ثوابها، لكن وجود رغبة السوء في النفس قد تكون خطوة أولى نحو الوقوع في المعصية، فهي تهيئ النفس للذنب، فعلى

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص١٢٤، حكمة ٥٨.

الإنسان أن يمنع نفسه من التفكير في المعصية مع أول بادرة أو خاطرة، سواء كانت مخالفة بينه وبين ربه، أو إساءة إلى الآخرين.

إذا حدثتك نفسك بمقاطعة شخص، أو الإساءة إليه، عليك أن تواجه هذه الخاطرة، ولا تتركها تنمو داخل نفسك؛ لأنّ هذا يجعلك أقرب للمعصية كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «مَنْ كَثُرَ فِكْرُهُ فِي المَعاصِي دَعَتْهُ إلَيْها»[1].

وفي كلمة أخرى عنه عليه السلام: «مَنْ كَثُرَ فِكْرُهُ فِي اللَّذَّاتِ غَلَبَتْ عَلَيْهِ»[2].

أحيانًا يتلذذ الإنسان بتخيل ممارسة الحرام، فيخطو الخطوة الأولى نحو المعصية، بينما عليه أن يتجنب ذلك.

وكم من إنسان وقع في الحرام والبداية كانت التخيّل؟!

أجواء تنمّي رغبات السوء

ومِمَّا ينمّي الرغبة في الحرام مجالسة قرناء السوء، والحضور في مجالس اللّهو، حين يجلس شاب صالح مع شباب يتحدثون عن مغامراتهم الطائشة، هنا تتطبع الحالة في نفسه، والشيطان يسوّل له محاكاة مثل هذه الأعمال التي سمعها من غيره!!

ومن هنا تأتي حرمة مشاهدة الأفلام الإباحية، التي تُطبِّع المعصية والخيانة في نفس الإنسان، وتدفعه إلى الحرام، إنها تهيئ نفس الإنسان

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٣٥٩، حكمة ١٢٧٠.
(٢) المصدر نفسه، حكمة ١٢٦٩.

للوقوع في الحرام، وفي بعض الأحيان يخدع الإنسان نفسه، يفكر أن يتجاوب جزئيًّا، فتسوّل له نفسه المراسلة عبر مواقع التواصل الاجتماعي مع الجنس الآخر، لكن مجرد المراسلة قد تكون خطوة نحو الحرام، وكم من شاب وفتاة وقعا في مهاوي الرذيلة، والبداية هي الاستجابة لمراسلات خاصة؟! هناك نفوس سيئة تحترف استدراج الآخرين بهذا الاتجاه، وإذا خطا الإنسان الخطوة الأولى قد يصعب عليه التراجع فيما بعد!!

قرأت عن بعض التجارب، والبعض حدثني عن نتائج التواصل مع الجنس الآخر، والبداية تكون بتبريرات واهية، يدخل بها الشيطان، ويزيّن للشاب أو الفتاة التواصل بحجة محاولة هداية الطرف الآخر!!

وكم من مشاكل ومصائب حدثت بهذا السبب؟!

شخص لم يقارف المعصية، يسافر مع مجموعة لديهم توجهات مشبوهة، وهو يعرف أنّ هؤلاء يسيرون في طريق الرذيلة، لكنه يبرر لنفسه أنه لن يسايرهم في أفعالهم!

من يضمن لك عدم الانزلاق معهم، ومع وساوس الشيطان، ورغبات النفس الأمارة بالسوء؟!

في القرآن الكريم آية مهمة جدًّا تتحدث عّن صفات المتقين، يقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[سورة الأعراف، الآية: ٢٠١].

لاحظ التعبير (طَائِفٌ)، والطائف هو الذي يدور حول الشيء، الآية تشبه الشيطان بمن يدور حول الشيء يبحث عن منفذ حتى يدخل ويلج، وهكذا هو الشيطان يدور حول نفس الإنسان يريد أن يجد منفذًا إلى قلبه، والإنسان المتقي يكون منتبهًا حذرًا، (إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ) واستخدم كلمة (مَسّ) وهي الإصابة الخفيفة، لكن المتقين يتنبهون لذلك، حتى لو كانت همسة خفيفة، كي لا يفسحوا المجال للشيطان، ويقعون في المعصية.

على الإنسان أن يكون حذرًا سواء تجاه رغبات الجنس، أو المال، أو العدوان والإساءة إلى الآخرين، فإنّ الشيطان يسوّل للإنسان، ويزيّن له، ويهوّن عليه الأمر، بطريقة الاستدراج خطوة خطوة، يقول اللّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ إنها خطوات، وليس بشكل مباشر يدعوك إلى الجريمة والانحراف ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾.

وعي المسؤولية في الحياة

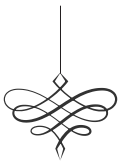

حتى يعيش الإنسان واقع المسؤولية تجاه أعماله وأقواله، يجب أن يشعر أن كلّ عمل من أعماله، وكل قول من أقواله، لن يذهب عبثًا واعتباطًا، وإنما هناك رصد ومتابعة لما يصدر عنه؛ لأن الإنسان إذا لم يشعر بالرقابة والمتابعة، قد يتساهل حتى فيما يعلم أنه من مصلحته، نحن نجد مثلًا أنَّ أنظمة المرور قَدْ صيغت لمصلحة الإنسان، لكنّ كثيرًا من الناس إن لم تكن هناك رقابة أو جزاء عن المخالفة، فإنهم يتساهلون في تجاوز الأنظمة المرورية، الشوارع التي تكون فيها كاميرات للمراقبة تجد السائقين يحرصون على التزام النظام عند السير فيها، فإذا ما تجاوزوا ذلك الشارع إلى شارع آخر، يعلمون أن لا رقابة فيه، يزيدون السرعة، ويأخذ الواحد منهم حريته، وهو يعلم أن هذا في مضرته وليس في مصلحته.

تجد بعض الناس حين يسافرون إلى بلدان فيها انضباط مروري، فإنهم يتقيّدون بالأنظمة، لكنهم حينما يرجعون إلى بلدانهم، حيث لا

تُراعَى الأنظمة المرورية بدقة، ينساقون مع البقية، فلا يتقيدون بالأنظمة.

ولأن اللّه تعالى يريد للإنسان، أن يكون صالحًا، وأن يتقيّد بما ينفعه في الدنيا والآخرة، لذلك فإن اللّه تعالى يسجّل على الإنسان كلّ أفعاله وتصرفاته وأقواله.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ والوسوسة تعني الخواطر التي تمرّ على قلب الإنسان، واللّه سبحانه وتعالى لا يحاسب على الخواطر القلبية ما لم تتحول إلى أعمال، لكنك يجب أن تعرف بأنك مراقب حتى على هذا المستوى، اللّه تعالى يعلم بما يدور في داخل نفسك، لذلك فإن الصالحين الأولياء يراقبون حتى خواطر أنفسهم، أيّ خاطرة خطأ يطردونها فورًا.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ حبل الوريد تلك الشرايين، التي تنقل الدم من القلب إلى بقية أجزاء جسم الإنسان، اللّه سبحانه وتعالى أقرب لك من شرايينك، وهذا تعبير عن إحاطة اللّه تعالى بك، وبأوضاعك وتصرفاتك.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ الروايات تشير إلى أن اللّه تعالى قد وكّل ملكين بالإنسان، من حين بلوغه حدّ التكليف، ملكًا عن يمينه يكتب الخير، والأعمال الصالحة، وملكًا عن شماله يكتب الأعمال السيئة، ويرافقان الإنسان طيلة حياته، بلا سأم ولا ملل.

ملكان موكّلان من قبل اللّه تعالى، هل هذا على نحو الحقيقة؟ أو

أنه تعبير لإحاطة اللّه بالإنسان؟ الروايات تشير إلى أن ذلك على نحو الحقيقة، وإن صاحب اليمين موكّل بتسجيل الحسنات، وهو مشرف على الملك الآخر الذي يكتب السيئات على اليسار، فإذا عمل الإنسان حسنة، سارع الملك الذي على اليمين لكتابتها له بعشر، أما إذا عمل الإنسان سيئة وأراد الملك الذي يكتب السيئات أن يكتبها، التفت إليه الملك الذي على اليمين قائلًا: اصبر، لا تكتب السيئة عليه، أمهله ساعات لعله يتوب إلى ربه. فإن تاب واستغفر لا يكتبها الملك عليه، وإن لم يتب ويستغفر اللّه تعالى، ثبتت السيئة واحدة.

وورد في الروايات أن هذين الملكين إذا كان الإنسان المؤمن يقوم بأعمال صالحة ويواظب عليها، فأصابه مرض أو عذر أقعده عن القيام بذلك العمل الصالح، فإن اللّه تعالى يأمر الملك الذي يكتب الحسنات، أن يستمر في كتابة عمل الخير له، ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ، قَالَ اللَّهُ لِلْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ: اكْتُبُوا لِعَبْدِي مِثْلَ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ حَتَّى أَقْبِضَهُ، أَوْ أُعَافِيَهُ»[1]، وهذا من لطف اللّه وكرمه.

لذلك على الإنسان أن يعوّد نفسه أعمال الخير، تعوّد أن تصلي صلاة الليل، أن تقرأ شيئًا من القرآن كلّ يوم، أن تدفع صدقة كلّ يوم، عوّد نفسك على أمثالها من الأعمال الصالحة، فإنها تكتب لك حتى لو تركتها لعذر.

---

(١) ابن أبي شيبة الكوفي. المصنف، ج ٣، ص١١٩.

انظروا إلى رحمة اللّه بكم ولطفه عليكم، الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام تقول: «إِذَا قَبَضَ اَللَّـهُ رُوحَ اَلْمُؤْمِنِ، صَعِدَ مَلَكَاهُ إِلَى اَلسَّمَاءِ، فَقَالاَ: يَا رَبِّ، عَبْدُكَ وَنِعْمَ اَلْعَبْدُ، كَانَ سَرِيعًا إِلَى طَاعَتِكَ، بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَتِكَ، وَقَدْ قَبَضْتَهُ إِلَيْكَ، فَمَا تَأْمُرُنَا مِنْ بَعْدِهِ؟ فَيَقُولُ اَلْجَلِيلُ اَلْجَبَّارُ: اِهْبِطَا إِلَى اَلدُّنْيَا، وَكُونَا عِنْدَ قَبْرِ عَبْدِي، وَمَجِّدَانِي، وَسَبِّحَانِي، وَهَلِّلاَنِي، وَكَبِّرَانِي، وَاُكْتُبَا ذَلِكَ لِعَبْدِي حَتَّى أَبْعَثَهُ مِنْ قَبْرِهِ»[1]. ما أعظمك يا ربّ، وما أرحمك.

أيها الأحبة، عن أيّ شيء يبحث الإنسان؟ فنعم الرّب رّبنا، هذا الرّب، الذي يتعامل معنا بهذه الطريقة، كيف نتعامل نحن معه؟!

تقول الآية: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، كلّ كلمة تقولها فإنها محسوبة عليك، فعليك أن تحسب الحساب لكلامك، ورد في الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوانِ اللَّـهِ تَعالى، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بلَغَتْ، يكْتُبُ اللّـه لَهُ بهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِنْ سَخَطِ اللّـه، مَا كَانَ يظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بلَغَتْ، يكْتُبُ اللّـه لَهُ بهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يلْقَاهُ»[2].

(١) بحار الأنوار. ج٦، ص١٥٢.

(٢) محمد ناصر الدين الألباني. صحيح سنن ابن ماجه، حديث ٣٢٢٠.

المعرفة والالتزام السلوكي

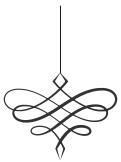

هناك فارق كبير بين أن يمتلك الإنسان العلم، وأن يستفيد منه فعليًّا. فقد يحمل الإنسان العلم في بعض الأحيان، لكنه لا يتحول إلى سلوك عملي في حياته، ولا يظهر أثره على ممارساته، وإنّما يبقى مجرّد نظريات يختزنها، وآراء يحملها، ومعلومات يتوفّر عليها، فلا تكاد تغادر ذهنه. وذلك أشبه ما يكون بامتلاك المرء مصباحًا كهربائيًّا، لكنه يُبقي عليه مطفأ، أو يغمض بصره عن رؤية ضوئه، أو أنه ببساطة لا يجيد تشغيله، ما يعني في النهاية أنّ مجرّد وجود المصباح لا يعني حتمية الاستفادة من ضوئه. وكذلك هو العلم، فقد لا يستفيد الإنسان من العلم الذي يتوفّر عليه، وهذا عين ما يشير إليه أمير المؤمنين عليّ بن طالب عليه السلام حين قال: «رُبَّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ، وَعِلْمُهُ مَعَهُ لَا يَنْفَعُهُ»[1].

وقد أشارت نصوص دينية كثيرة إلى إخفاق بعض حملة العلم في

---

(١) نهج البلاغة، حكمة ١٠٧.

الاستفادة من العلم الذي يحملون. روي عن نبيّ اللّه عيسى عليه السلام أنه قال: «وماذا يُغني عَنِ الأَعمى سَعَةُ نورِ الشَّمسِ وهُوَ لا يُبصِرُها؟! كَذلِكَ لا يُغني عَنِ العالِمِ عِلمُهُ إذ هُوَ لَم يَعمَل بِهِ»[1].

ومما جاء في الشعر العربي قول الشاعر:

كَالعِيسِ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَأ
وَالْمَاءُ فَوقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ

وأبلغ من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، شبّه تعالى بعض حملة العلم بالحمار الذي يحمل على ظهره كتب العلم وأسفار المعرفة؛ لأنّ ذلك العلم لم يجد طريقه نحو التطبيق والتحوّل إلى سلوك فعّال، بقدر ما ظلّ يمثل مجرّد حزمة من النظريات والآراء والمعلومات التي يختزنها ذهنه وحسب.

الشّهوات تصرف عن العمل بالعلم

هناك موانع قد تحول بين الإنسان والاستفادة من علمه. ولعلّ أبرزها خضوع الإنسان العالم إلى شهوة أو رغبة تصرفه عن العمل بالعلم. وقد يعتري هذا الأمر المعنيين بالمجال الديني، كما هو وارد على المعنيين بالمعارف الدنيوية، فهناك في المجال الديني من يعرف قيم وأحكام الدين على نحو جيّد، لكنه مع ذلك يخالفها اتّباعًا للأهواء والشهوات،

(١) بحار الأنوار، ج ١٤، باب (٢١) مواعظ عيسى عليه السلام وحكمه، ص٣٠٧.

وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّـهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وكما هو واضح بأنّ من تتناوله الآية هو عالم قد ضلّ وانحرف استجابة لهواه، الذي أصبح بمثابة إله يخضع له. وعلى غرار ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كَمْ مِنْ عَقْلٍ أسيرٌ تَحتَ هَوىً أميرٍ»[1]، فقد شبّه عليه السلام العقل بالأسير المقيّد تحت إمرة الهوى المسيطر على صاحبه.

العالم ليس دائمًا كما يتوقّع الناس

إنّ توقعات الناس تجاه التزام العلماء بالعلم الذي يكتنزونه، ربما تخالفها حقائق الأمر الواقع في كثير من الأحيان. ففي المجال الديني مثلًا: يتوقع الناس من رجل الدين الذي يعرف الحلال والحرام، أن يلتزم حرفيًّا بقيم وأحكام الدين، غير أنّ ذلك قد لا يحدث، فهو يمتلك المعرفة الدينية، لكنها لا تترجم حتمًا إلى سلوك، نتيجة الأهواء والشهوات التي قد تسيطر على قلبه. ومثال ذلك ما تناوله القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾، فهذا الشخص كان يعرف جيّدًا مبادئ وقيم الدين، لكنه ساعة استيلاء الأهواء عليه ضرب بالمبادئ والقيم عرض الحائط، فأصبح في وضع أسوأ بكثير من سائر الناس العاديين، فقد ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنه

(١) نهج البلاغة، حكمة ٢١١.

قال: «إنّ أَشَدَّ النّاسِ عَذابًا يَومَ القِيامَةِ عالِمٌ لَم يَنفَعهُ عِلمُهُ»[١]، وجاء في حديث آخر عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَتَأَذَّوْنَ مِنْ رِيحِ الْعَالِمِ التَّارِكِ لِعِلْمِهِ»[٢]، مما يعني أن العالم غير العامل بعلمه هو أسوأ أهل النار موقعًا، وأشدّهم عذابًا، وأنتنهم ريحًا.

مخالفة المعرفة

والمحزن أنّ الناس قد يتجاهلون أبسط معارفهم الدنيوية وليست الدينية فقط، فيوقعون أنفسهم في الانحرافات والمشاكل. فجميع الناس تعرف أنظمة المرور، وتدرك جيّدًا أهمية التقيّد بها، ولو سألت أحدًا عن مدى خطر الوقوع في مخالفة أنظمة المرور، لأسهب في تناول تلك الأخطار. والحال نفسه على المستوى الصحي، فقد باتت الثقافة الصحية منتشرة على نطاق واسع، وبات أكثر الناس لديهم اطّلاع جيّد بمسببات الأمراض، غير أنّ ضغط الرغبة والهوى يجعلهم يتجاهلون كلّ التحذيرات الطبية، فيرتكبون ما يضرّ بصحتهم، من خلال تناول الأطعمة والأشربة غير المناسبة، أو ممارسة العادات الضارّة بصحتهم، فتعود عليهم بالأمراض الفتاكة والمزمنة، كأمراض السكري، وأنواع السرطان والسمنة. فالمشكلة هنا ليست مرتبطة بنقص المعرفة والعلم، وإنما تتعلق بالخضوع للرغبة، والاستسلام للشهوة، التي تجعل الناس

(١) كنز العمال، حديث ٢٨٩٧٧. وفي تفسير القرطبي، ج١، ص٣٦٦ (لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ).

(٢) بحار الأنوار، ج٢، ص٣٤، حديث٣٠.

يتجاهلون علمهم ومعارفهم، فيودي بهم ذلك إلى المهالك.

واستطرادًا، تشير الدراسات والأبحاث إلى أنّ أكثر أسباب الوفاة في العالم ناتجة عن أمراض السرطان، الناشئة بدورها عن عادات وممارسات يقع فيها الناس أنفسهم. وقد احتفى العالم باليوم العالمي للسرطان المصادف للرابع من فبراير من كلّ عام، والمخصص للتوعية بأضرار هذا المرض. أحد أخطر الأمراض الفتاكة، ومما يضاعف من خطورته أنه ينتشر في جسم المريض خلسة، ولا يترك أعراضًا واضحة في بداياته، بل قد لا يدرك المريض بالسرطان أنه مصاب به، إلّا بعد أن يستفحل وتنتشر خلاياه في جسمه.

ويُعَدّ مرض السرطان أحد أكثر الأمراض المؤدية للوفاة على مستوى العالم، ومن أنواع السرطانات المؤذية؛ سرطان الرئة، والسبب الرئيس خلف هذا النوع من السرطان عادة التدخين. ورغم معرفة أغلب المدخنين أن التدخين هو المسبب الرئيس لأمراض السرطان، إلّا أنّهم مع ذلك يتجاهلون كلّ التحذيرات الصحية، مبررين تشبثهم بالتدخين بتبريرات واهية، إلى أن يصابوا بالمرض الخبيث كمن سبقهم من المدخنين، لا لشيء إلّا الخضوع لسيطرة الرغبة وسلطان الهوى.

وحول الأخطار المرتبطة بالتدخين، تشير المعلومات إلى أنّ الإصابة بسرطان الرئة تقف خلف ٢٢ بالمئة من أسباب الوفاة نتيجة السرطان. وكشفت دراسة سعودية بأنّ التدخين يُعَدّ المسبّب الرئيس

لوفاة ما يزيد على ٢٣ ألف شخص سنويًّا في المملكة. وقالت منظمة الصحة العالمية إنّ التدخين يقتل ما يزيد على ستة ملايين شخص سنويًّا عبر العالم، والأنكى أنّ هناك ما يزيد على ٦٠٠ ألف شخص غير مدخّن يموتون سنويًّا نتيجة التدخين غير المباشر، أو ما يطلق عليه بالتدخين السلبي، نتيجة استنشاقهم الدخان الذي ينفثه المدخنون، من الأصدقاء، وزملاء العمل، أو أفراد الأسرة، هذا على المستوى البشري. أمّا على الصّعيد الاقتصادي فحدّث ولا حرج، ففي المملكة العربية السعودية وحدها تبلغ كلفة استيراد التبغ أكثر من ثمانية مليار دولار.

إنّ أغلب الناس يعلمون، على المستويين الديني والدنيوي، أضرار كثير من ممارساتهم، وأنها ستؤدّي بهم إلى المهالك، لكنهم لا يتجنّبون تلك الممارسات نتيجة الخضوع للهوى. كثيرون يعلمون أنّ بعض الممارسات نتيجتها العذاب والشّقاء، وسخط ربّ العالمين، مع ذلك يقدمون على اقترافها، لمجرّد الخضوع للرغبة وسيطرة الهوى، وهذا مصداق قول أمير المؤمنين عليه السلام: «رُبَّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ، وَعِلْمُهُ مَعَهُ لَا يَنْفَعُهُ».

الاعتبار ومواجهة احتمالات الخطر

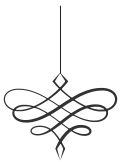

قد يتلقى الإنسان تحذيرًا تجاه خطر ما، وهنا عليه أن يأخذ هذا التحذير بعين الاعتبار؛ لأنه لو وقع في المحذور سيكون ملومًا، فالذي وقع عليه لم يكن مفاجئًا، بل سبقه تحذير وإنذار.

في المجال الإداري مثلًا يُعطى الموظف إذا أخطأ إنذارًا، لكنه في المرة الثانية قد يعاقب لتكرراه الخطأ، وعدم اعتباره من خطئه السابق.

وحينما يسير الإنسان في طريق مليء بالحفر والانحناءات الشديدة، وهناك إشارات تحذير، فإنه إذا وقع في الخطر فهو المسؤول وهو الملام. لكن الأبلغ أن يرى إنسانًا يسير في نفس الطريق، ويرى وقوعه في المحذور، وبالرغم من ذلك لا يتعظ منه! بعبارة أخرى، قرأ ورأى إشارات التحذير، ثم رأى نتيجة مخالفة ذلك على غيره، وبالرغم من ذلك وقع في الخطر! فهل ثمة مبرر لفعله؟! أوليس هو المسؤول عما حدث له؟!

القرآن يدعو للاعتبار

القرآن الكريم يخاطبنا في أكثر من آية أن نتعامل مع الأخطار في حياتنا تعاملًا جديًّا، فهناك تحذيرات من عقولنا، ومن ديننا، وأكثر من ذلك أننا نرى النتائج السلبية للوقوع في الأخطار. لذلك يقول تعالى مخاطبًا بني البشر: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾، أنتم يا من تلاحظون، لكم أعين تبصرون بها، ويا من تعقلون لكم عقول تعي، رأيتم وسمعتم عما حلَّ بالأمم السابقة فاعتبروا منها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[سورة يوسف، الآية:١١١] لمن يُعمل عقله وفكره. والعبرة مأخوذة من مادة (اعتبار) وهي في الأصل العبور من شيء إلى آخر. فيقال للدموع عَبرَة، لأن قطراتها تعبر من العين. وكذلك الناقلة البحرية تُسمى عبَّارة، ولتوضيح فكرة يقال عِبارةً عن كذا، ولتفسير رؤيا المنام يقال تعبير، والحال نفسه للحوادث التي فيها دروس وعظات يقال عِبر.

لماذا لا نعتبر؟!

فالعبرة هي الانتقال من الحدث إلى الدرس والعظة، كأن يرى الإنسان شخصًا معاقًا بسبب التفحيط، فيتعظ ويتجنب الأمر. وكم في الدنيا من عبر! لكن المشكلة أن الإنسان يلهو ويغفل، وتسيطر عليه الأهواء والشهوات، الإنسان يسمع عن أضرار التدخين، ويرى غيره يعاني من المرض بسبب التدخين، لكنه مع كل ذلك، تمنعه الرغبة من أن يعتبر بما يسمع ويرى.

ويسمع عن أهمية النظام الغذائي، ويعلم أن الإفراط في تناول السكريات يؤدي إلى مرض السكري، ويرى كيف يعاني المصابون بهذا المرض، لكنه لا يستطيع أن يقاوم رغبته، فيغامر بصحته من أجل تلك الرغبة.

شباب في ريعان شبابهم، يسمعون عن آثار المخدرات، ويرون عواقبها، لكنهم في لحظة من لحظات الرغبة والشهوة ينحرفون ويصابون بداء الإدمان.

والفتيات يسمعن عن مشاكل الدردشة في الجوال والإنترنت، وأن ذلك يكون مدعاة لاستدراجهن، وابتزازهن، ويسمعن كثيرًا من القصص، وفظاعة النتائج، لكنهن بالرغم من ذلك، يقعن في هذا الفخ. ألا يقرأن عن مثل هذه المشاكل التي وقع فيها غيرهن؟! ألا يسمعن الوعظ والنصح؟!

يقرأ الإنسان عن الذنوب والمعاصي، وما يترتب عليها من أضرار دنيوية وأخروية، لكنه يتجرأ على خالقه ويعصيه!.

دعوة للاعتبار

من هنا يركز القرآن الكريم على أهمية الاعتبار، وكذلك النصوص الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام. أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيما روي عنه: «السعيد من وعظ بغيره»[1]. لماذا تجعل من قصتك وقضيتك عبرة

(١) تحف العقول، ص١٠٠.

لغيرك؟ لماذا لا تعتبر أنت من غيرك حتى لا تقع فيما وقع الآخرون فيه؟!

وعنه عليه السلام: «يَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ الِاعْتِبَارِ»[١]. فيأخذ منها الدروس والعبر، قبل أن يكون هو درسًا لغيره. وعنه عليه السلام: «من جهل قل اعتباره»[٢]. وجاء عنه عليه السلام: «مَا أَكْثَرَ الْعِبَرَ وَأَقَلَّ الِاعْتِبَارَ»[٣] كثيرة هي الدروس التي ينبغي أن يستفيد منها الإنسان، ولكن أين من يعتبر؟! ومن أبلغ العبر: الموت. فهل في الموت شك؟ الموت ليس حديثًا ينقل، ولا أمرًا نتكهن به هل يقع أم لا؟ هل هو حق أم لا؟ وإنما هو واقع لا محالة. كل يوم نسمع عن ميت، أفلا يتبادر إلى ذهننا أننا لاحقون به، وأن مصيرنا هو نفس مصيره؟ أفلا يكون هذا مدعاة لاعتبارنا؟!

وورد عن الإمام علي عليه السلام: «وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ وَهُوَ يَرَى الْمَوْتَى!»[٤]. وعنه أيضًا عليه السلام: «ما رأيت إيمانًا مع يقين أشبه منه بشك على هذا الإنسان، إنه كل يوم يودع إلى القبور، ويشيع، وإلى غرور الدنيا يرجع، وعن الشهوة والذنوب لا يقلع، فلو لم يكن لابن آدم المسكين ذنب يتوكفه، ولا حساب يقف عليه إلّا الموت يبدد شمله، ويفرق جمعه، ويؤتم ولده، لكان ينبغي له أن يحاذر ما هو فيه بأشدّ

(١) نهج البلاغة، حكمة ٣٦٧.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) نهج البلاغة، حكمة ٢٩٧.
(٤) المصدر نفسه، حكمة ١٢٦.

النصب والتعب»[١].

وسئل عليه السلام: ما الاستعداد للموت؟ فقال عليه السلام: «أداء الفرائض، واجتناب المحارم، والاشتمال على المكارم، ثم لا يبالي أوقع على الموت، أم وقع الموت عليه»[٢].

على الإنسان أن يعتبر مما يرى ويسمع، وأن يحذر من الغفلة والركون إلى الرغبات والشهوات. وكفى بالموت واعظًا.

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص١٣٧.
(٢) المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٣٨.

الإنسان حين يظلم نفسه

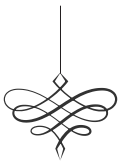

حبُّ الإنسانِ لذاته غريزةٌ أساس تُعدّ أصلًا لسائر الغرائز الإنسانيّة الأخرى، وبهذه الغريزة يقوم الإنسان بحماية نفسه، فيدفع عنها الأضرار، ويحميها من الأخطار، ويبحث عن مصالحها، ويدفع المفاسد عنها، وهذا ما أقرّته جميع الشرائع السماويّة والقوانين البشريّة؛ كما لا تختص هذه الغريزة بالإنسان، بل زوّد اللّه كلّ الكائنات الحيّة بغريزة الدفاع عن ذاتها، كلٌّ بحسب استعداداته التي منحتها له المشيئة الإلهية.

وفي الوقت الذي تواجه فيه الذاتُ البشريّة الأخطارَ التي تقف أمامها، نلاحظ إغفالها لخطرٍ يمكن عَدّه من أهمّ مصادر الظلم والعدوان بالنسبة إليها، وهو: نفس الذات الإنسانيّة؛ إذ إنّ هذه النفس تظلم الإنسان في كثير من الأحيان، وهذا ما أشارت إليه النصوص القرآنيّة والروائيّة؛ حيث نلاحظ أنّ مضمونها عمومًا يخاطب الإنسان قائلًا له: أيّها الإنسان الذي تُعبئ كلّ قواك من أجل دفع وردع أيّ عدوان خارجيّ ينتابك، ما بالك تخنع أمام ظلم ذاتك لك واعتدائها عليك؟!

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة يونس، الآية: ٤٤].

﴿فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[سورة التوبة، الآية: ٧٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ...﴾[سورة النساء، الآية: ٩٧].

وورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ اَلَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»[١].

وعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «نَفْسُكَ أَقْرَبُ أَعْدَائِكَ إِلَيْكَ»[٢].

كيف يظلم الإنسان نفسه؟

وقد يسأل سائل: عن كيفيّة ظلم الإنسان لنفسه، وهل يمكن أن يحصل ذلك في الحقيقة وواقع الأمر، ونحن نعرف أنّ الظلم يحصل من الإنسان للغير فقط؟

وفي الجواب: يمكن أن نذكر ثلاثة مصاديق لظلم الإنسان لنفسه، وهي:

١. إطلاق العنان للرغبات

لا شكّ أنّ للإنسان رغبات متعدّدة كامنة، ولا بُدّ من استيفاء

(١) بحار الأنوار، ج٦٧، ص٧٤.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٢٩٥، حكمة ٨.

استحقاقاتها في إطار حدودٍ وسقوفٍ حدّدها الشرع والعقل، لكن فتح المجال أمام هذه الرغبات دون قيود وشروط هو إيذاء للنفس، وظلم لها، رغم السعادة الظاهريّة التي قد يحسّ بها الإنسان.

والمؤسف أنّ البعض ممن يطلقون العنان لأنفسهم في عموم الميادين الغرائزيّة البشريّة، نجدهم لا يلتفتون إلى ذلك، ولعلّ نظرة يسيرة إلى الغريزة الماديّة، وإطلاق العنان لها من قبل البعض، كفيلة بإيضاح هذا الأمر؛ فإن من يتجاوز القيود والسقوف الغذائيّة مثلًا يفضي به إلى ظهور أزمات صحيّة كثيرة، ترافقه طيلة حياته، وربما تقضي عليه مبكرًا، ومن هنا أكّدت النصوص الدينيّة ضرورة الالتزام بالضوابط والقيود في استيفاء حقوق هذه الغريزة؛ كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١.]، وغاية ذلك هي صحة الإنسان وسلامة بدنه.

تشير الإحصاءات إلى أنّ نسبة الإصابة بالسكري في المملكة العربيّة السعوديّة في عام ١٩٨٥ هي ٥٪، أمّا في عام ٢٠١٤ فقد ارتفعت النسبة إلى: ٢٤٪، وهي نسبة عالية جدًّا؛ أي ما يربو على ثلاثة ملايين شخص مصابين بهذا المرض، وكذا الأمر في مرض السمنة؛ حيث إنّ الجلوس واختزان السعرات الحراريّة في الجسم يتحوّل إلى أمراض فتّاكة في الجسم.

ولا يقتصر الأمر على غريزة الطعام، بل يشمل ذلك غريزة الجنس أيضًا؛ فمن حقّ الإنسان أن يمارس الجنس، شريطة أن يأخذ القيود والضوابط الشرعيّة والأخلاقيّة بعين الاعتبار، ومن دون ذلك

ستصبح هذه الغريزة وبالًا ونكدًا عليه؛ حيث الأمراض الجنسيّة التي تأتي عن طريق التواصل الجنسي غير المنضبط الذي يعدُّ من أبرز أسباب الإصابة، فقد كثرت هذه الأمراض في الآونة الأخيرة كما تشير الإحصاءات حيث بلغ عدد المصابين بالإيدز في العالم أكثر من ٣٦ مليونًا، يموت منهم سنويًّا أكثر من ٧٢٠ ألف.

وحذّرت جمعيّة أواصر الخيريّة المواطنين المسافرين خارج المملكة العربيّة السعوديّة، من سماسرة الجنس الذين يستقبلونهم في المطارات والفنادق المختلفة ويدفعونهم نحو الممارسة غير المنضبطة، باسم الزواج التي قد تسبب لهم أمراضًا فتّاكة تودي بحياتهم في نهاية المطاف[١].

ويشير تقرير صادر عن وزارة الصحة السعودية أنّ العدد التراكمي لكافة الحالات المكتشفة بهذا المرض في السعودية منذ بداية عام ١٩٨٤ وحتى نهاية عام ٢٠١٢، بلغ ١٨٧٦٢ حالة، كما تم اكتشاف ١٢٣٣ حالة جديدة مصابة بفيروس الإيدز عام ٢٠١٢ م[٢].

٢. تحجيم الذات بالاهتمامات المادية

لا شكّ أنّ الإنسان يختلف عن باقي الكائنات الحيّة في قيمته المعنويّة

(١) جريدة الرياض. الأربعاء ٦ شعبان ١٤٣٥هـ/ ٤ يونيو ٢٠١٤م، العدد ١٦٧٨١ صفحة رقم (٤٨).

(٢) موقع الجزيرة نت. السبت ٢٧/ ١/ ١٤٣٥هـ/ الموافق ٣٠/ ١١/ ٢٠١٣م.
http://www.aljazeera.net/news/pages/533b9666-9997-43fc-9df4-15923d0e4033

العالية؛ حيث لم يُخلق من تراب خالص، وإنما نفخ فيه خالقه الجبّار من روحه، بعد أن أحسن صنعه وخلقته، من هنا فهو يمتلك أفقًا معنويًّا يتطلّع من خلاله إلى دارٍ أخرى غير داره الدنيويّة، وهذا يدعوه إلى الحفاظ على البعد المعنوي، والاستجابة له وتنميته، لا أن يترك ذاته منغمسةً في البعد الماديّ الخالص.

لكن المؤسف أنّ البعض يذهب صوب الماديّات، محجِّمًا لذاته في الطعام والجنس والممتلكات، ويحرم نفسه من المكاسب المعنويّة الهائلة التي كانت تتوفّر له لولا ابتعاده عنها وإهماله لها، على أنّ الشارع المقدّس لا يقف أمام المكاسب الماديّة وتحصيلها، لكنّه يدعو الإنسان إلى عدم تحجيم نفسه في إطارها؛ فأين الإنسان من المنجزات المعنويّة؟ وأين هو من التقدّم في ذلك العالم الذي سينتقل إليه؟!

ولا شكّ أنّ أفق العلم والمعرفة، هو من التوجّهات المعنويّة، التي ينبغي للإنسان أن ينحوَ نحوها، ويميل إليها، ومن يحرم نفسه من هذه المتعة العظيمة، والمكسب الجليل، فسوف يظلم نفسه دون شكّ وريب.

أجل؛ على الإنسان أن يلتفت إلى هذه الميزة التي ميّزته عن سائر المخلوقات، وأن يخصّص وقتًا لطلب العلم والمعرفة، كما يخصّص ساعات لتلك الأمور الماديّة؛ فقد ذمّت النصوص الدينية حالة الركود في طلب العلم، والانكفاء على النفس، والعيش بجهالتها.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّي زِدْنِي عِلْمًا﴾[سورة طه، الآية: ١١٤].

وروي عن الرسول اللّه ﷺ القول: «كُلُّ يَوْمٍ لا أَزْدَادُ فِيهِ عِلْمًا يُقَرِّبُنِي مِنَ اللَّـهِ فَلا بُورِكَ لِي فِي طُلُوعِ شَمْسِ ذَلِكَ الْيَوْمَ»(١).

وليس العلم والمعرفة هي الأمور المعنويّة الوحيدة التي ينبغي للإنسان تهيئة النفس لطلبها، والالتذاذ بها؛ فإنّ لذة مناجاته تعالى، والاتصال به، لذّة عظيمة، خصوصًا في أيام اللّه المباركة، التي حثّت النصوص الدينيّة على استثمارها بالعبادة والنسك؛ حيث يشعر الإنسان المنفتح على خالقه باللذة والسعادة والسّرور، وهو يناجيه في آناء الليل وأطراف النهار، وهذا ما نجد مظهره على لسان النبي الأكرم ﷺ حينما كان يطلب من مؤذنه بلال أن يريحه بالصلاة، فورد عنه ﷺ: «يَا بِلَالُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»(٢).

كما أنّ تجسيد القيم الأخلاقيّة والتمثّل بها يعدّ من أرقى اللذائذ المعنويّة الكبيرة؛ فحينما يكون الإنسان مصدرًا لرسم البسمة على شفاه الأيتام؛ وإدخال السّرور على قلوب المكروبين والمحزونين؛ والفرج على المهمومين. فلا شكّ أنّه سيحصل على أفضل السعادات المعنويّة.

ومن هذه الإشارات المتقدّمة، نفهم: أنّ الإنسان الذي يهمل كلّ هذه المكاسب المعنويّة، لا شكّ أنّه يظلم نفسه، وهذا ما نبّه إليه الإمام

(١) كنز العمّال، ج١٠، ص١٣٦.
(٢) سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داود، ج٢، حديث٤٩٨٥.

عليّ عليه السلام حيث قال: «إِنَّ لِأَنْفُسِكُمْ أَثْمَانًا فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِالْجَنَّةِ»[١]، وليس ذلك دعوة للعزوف عن اللذائذ الماديّة والابتعاد عنها، وإنما هو تشديد على ضرورة أن يكون الاستيفاء في إطار الحدود التي وضعت لها.

٣. ظلم الآخرين ظلم للنفس

حينما يظلم الإنسان غيره، فهو في واقع الأمر قد ظلم نفسه، وبخسها حقّها، وعليه أن يتجنّب ظلم أبنائه أو زوجته أو أقربائه أو موظّفيه، أو أيَّ شخص آخر، من أجل لذّة زائلة داثرة لا استمرار لها؛ فإنّه بذلك يظلم نفسه ويتجاوز عليها.

وهكذا نعرف أنّ الانتصار الحقيقيّ هو الانتصار على النفس، وكما قال الإمام عليّ عليه السلام: «مَا ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ الْإِثْمُ بِهِ، وَالْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوب»[٢].

فالظلم ظلمات وتبعاته خطيرة، وأول تبعاته مواجهة تأنيب الضمير، ثم سوء السمعة لدى الآخرين، وقد يقع الإنسان تحت طائلة العقوبة وردّ الفعل ممن أصابه ظلمه، أو يناله البلاء، أما التبعة الأشدّ فهو العذاب في الآخرة، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾[سورة الفرقان، الآية: ١٩]، ويقول عليّ عليه السلام: «وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّـهُ خَصْمَهُ دُونَ

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٢١٩، حكمة٩٧.
(٢) نهج البلاغة، حكمة ٣٢٧.

عِبَادِهِ وَمَنْ خَاصَمَهُ اللّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ لِلَّـهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ»[١].

وعنه عليه السلام: «وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ لَيْسَ هُوَ جَرْحًا بِالْمُدَى وَلَا ضَرْبًا بِالسِّيَاطِ وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ»[٢].

(١) نهج البلاغة، كتاب ٥٣.
(٢) المصدر نفسه، خطبة ١٧٦.

كيف يخون الإنسان نفسه؟!

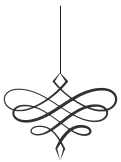

تتعدّد أشكال وأنماط الخيانة، إلّا أنّ أعظمها خيانة الإنسان نفسه. والخيانة في اللغة هي التفريط فيما يؤتمن عليه الإنسان، ونقيض ذلك؛ الأمانة، وتعني حفظ المرء لما يؤتمن عليه. فإذا ما اؤتُمن إنسان على مال، فإن الأمانة تقتضي أن يحفظ ذلك المال، وأن يرده إلى صاحبه، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، بينما تعني الخيانة أن يجري التصرف في ذلك المال المؤتمن عليه، أو التفريط في الحفاظ عليه مما يؤدي لضياعه، وهذا ما يُعَدّ خيانة على الصعيد المالي.

وقد حذّرت الشريعة من الوقوع في الخيانة المالية، تجاه أيّ أحد، مسلمًا كان أم كافرًا، وصديقًا كان أم خصمًا، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ فَتَكُونَ مِثْلَهُ»[1]، ذلك أنّ الخيانة تجعل الطرفين

(١) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ١٧٥، حديث٣.

على حدٍّ سواء في تلك الصفة القبيحة. وورد عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «عَلَيْكُمْ بِأَدَاءِ اَلْأَمَانَةِ، فَوَ اَلَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ نَبِيًّا، لَوْ أَنَّ قَاتِلَ أَبِيَ اَلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام، اِئْتَمَنَنِي عَلَى اَلسَّيْفِ اَلَّذِي قَتَلَهُ بِهِ لَأَدَّيْتُهُ إِلَيْهِ»[1].

كما يندرج تحت عنوان الخيانة أيضًا؛ الخيانة في العرض. وذلك بأن يأتمن إنسان أحدًا على عرضه، زوجته وبناته وسائر أهله، فيسوّل الشيطان لهذا الآخر أن يخون تلك الأمانة، ويتصرف بالسوء، بدلًا من أن يحافظ على عرض الرجل.

وتلحق بألوان الخيانة إفشاء أسرار الآخرين الذين يأتمنونه على أسرارهم، وفي هذا الصدد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِفْشَاؤُكَ سِرَّ أَخِيكَ خِيَانَةٌ، فَاجْتَنِبْ ذَلِكَ»[2]، ويشمل ذلك جميع الخصوصيات التي لا ينبغي للآخرين الاطّلاع عليها.

وقد تتمثل الخيانة في الإخلال بأداء العمل، أو القيام بالوظيفة على غير الوجه المطلوب، والأداء غير المناسب، كما لو تم الاتفاق مع مقاول على تنفيذ بناء وفق مواصفات معينة، فإذا ما أخلّ بالاتفاق، فإن ذلك مما يندرج تحت عنوان الخيانة، والحال نفسه ينطبق على عمل المهندس والطبيب، وأيّ عامل في أيِّ مجالٍ من المجالات.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٩، ص٧٦، حديث ٢٤١٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ج١٢، ص٣٠٧، حديث ١٦٣٧٢.

التأكيد على الأمانة

وورد في النصوص الدينية التشديد المضاعف على حفظ الأمانة، وحسن أداء العمل. ومن ذلك ما ورد عن وقوف أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم على خيّاط ملابس، فقال عليه السلام: «يَا خَيَّاطُ، ثَكِلَتْكَ اَلثَّوَاكِلُ، صَلِّبِ اَلْخُيُوطَ، وَدَقِّقِ اَلدُّرُوزَ، وَقَارِبِ اَلْغَرْزَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اَللَّـهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: يَحْشُرُ اَلله اَلْخَيَّاطَ اَلْخَائِنَ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ وَرِدَاءٌ مِمَّا خَاطَ وَخَانَ فِيهِ»[1]، وهذا الموقف مدعاة للتأمل، في مدى الدقة التي تدعو الشريعة لتمثلها، عند أداء مختلف الأعمال، واحترام حقوق الناس.

وما ينطبق على الخيّاط، ينطبق تمامًا على العاملين في ورش الميكانيكا، ومكاتب الهندسة، وعمّال البناء وغيرهم، فالحديث هنا عن الخيّاط ليس إلّا نموذج.

أما أشدّ ألوان الخيانة فهو ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «إِنَّ أَعْظَمَ اَلْخِيَانَةِ، خِيَانَةُ اَلْأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ اَلْغِشِّ، غِشُّ اَلْأَئِمَّةِ»[2]، وفي ذلك إشارة إلى القائمين على الخدمة العامة، فعندما يُقصّر هؤلاء في أعمالهم، فهم يقعون في أعظم ألوان الخيانة على الإطلاق؛ لأنها ليست خيانة فرد هنا أو هناك، وإنما هي خيانة لجميع الناس، كما أنّ من الخيانة العظمى وفقًا لقوله عليه السلام؛ خيانة الأئمة، والمقصود بالأئمة هنا الزعماء

(١) آية اللّه العظمى السيد حسين الطباطبائي البروجردي جامع أحاديث الشيعة، ج ١٨، ص ٨٢، حديث٥٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩٣،ص٩٢، حديث٩.

والقادة، الذين يغشّون رعيتهم وأتباعهم، ويفرّطون بمصالحهم.

وهكذا تمضي النصوص الدينية في التحذير من الوقوع في الخيانة. فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اَلْمُؤْمِنَ لاَ يَخُونُ»[١]، سواء كانت تلك خيانة مال، أو عرض، أو إفشاء سرٍّ، أو في أداء عمل. وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إيّاكَ وَالخيانَةَ، فَإنَّها شَرُّ مَعصِيَة»[٢]، فلا يوجد بحسب منطق الإمام عليه السلام معصية تضاهي الوقوع في وحل الخيانة.

خيانة النفس

ويتحدث القرآن الكريم عن لون عميق من ألوان الخيانة، وهو خيانة النفس!. فتارة يخون الإنسان الآخرين، كما تبين آنفًا، وتارة أخرى يخون نفسه. ويأتي السؤال هنا عن كيفية ارتكاب المرء الخيانة بحقّ نفسه، تلك الخيانة التي تشير لها الآية الكريمة بوضوح في قوله تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[سورة النساء، الآية: ١٠٧]، ولعلّ الصفة ﴿خَوَّانًا﴾ الواردة في الآية تشير إلى تكرر فعل الخيانة للنفس من أولئك الذين تتناولهم الآية في ثناياها، واللافت في الآية الكريمة التشديد الإلهي في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾، أي إنه سبحانه لا يحب الخيانة في مطلق الأحوال، سواء وقعت بحقّ الآخرين، أم ارتكبت بحقّ الذات

(١) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص١٨٣، حديث٣٦٨٦.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص١٦٨.

نفسها. وجاء في آية أخرى قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ..﴾. من هنا، يتكرر السؤال مجدّدًا عن الكيفية التي يخون بها الإنسان نفسه، وهو الذي يفترض به أن يحفظ نفسه، ويرعاها خير رعاية، بجلب المصالح لها ودفع الأضرار عنها، وكأنما هذه النفس أمانة عند صاحبها، وبذلك كان التقصير بحقّها خيانة تضاهي خيانة الآخرين.

إهمال النفس خيانة

هناك العديد من المصاديق لخيانة النفس. ولعلّ أولها هو التقصير البالغ في تزكية النفس، وتنمية قدراتها، واكتشاف كفاءتها، وبذلك يصبح خائنًا لنفسه كلّ من يتلكأ في تزكية وتطوير واكتشاف نفسه، بمختلف أبعادها، والنفس في هذه الحالة أشبه ما تكون بالبستان العامر بمختلف الزراعات، الذي أؤتمن عليه إنسان، فإذا ما أهمل سقاية هذا البستان والعناية به، حتى ذبلت أشجاره، وتلفت ثماره، فهل هناك خيانة أعظم من هذه الخيانة!. هذا المثال ينطبق تمامًا على النفس، التي حباها اللّه بقدر هائل من الكفاءات والقدرات، ويمكن أن تصنع الكثير إذا ما رعاها المرء واهتم بها، فإذا ما أهملها كان خائنًا لنفسه.

التفريط بالمستقبل خيانة

أما المصداق الآخر لخيانة النفس فهو التفريط بالمستقبل الأخروي، الذي ينتظر كلّ نفس في نهاية المطاف. إذ إنه مع معرفة

الإنسان بأنّ له حياة قصيرة محدودة زمنيًّا، فإن ذلك يتطلب استثمار كلّ ثانية للتجهيز لمستقبله في الآخرة، فإذا كانت أنفاس الإنسان هي العملة التي يستخدمها في الدنيا، فإنّ الآخرة تحتاج إلى عملة من نوع آخر، هي الأعمال الصالحة، وعمل الخير، وبذل الجاه، والتضحية بالوقت والمال في سبيل اللّه، فإذا ما تناسى الإنسان هذه الحقيقة، وفرّط في استثمار حياته، فإن هذا من أجلى مصاديق خيانة النفس.

وفي تعبير قرآني دقيق يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[سورة الأعراف الآيتان ٨ - ٩]، فالنفس في هذه الحياة أشبه بعملة ينبغي أن يستبدل بها عملة أخرى تنفع في الآخرة، فإذا ما أهملها المرء ولم يستبدل بها عملة الأعمال الصالحة، فتلك هي الخيانة والخسارة الكبرى. من هنا ينبغي ألّا يفرط الإنسان بنفسه في أمر سوى ما ينفعه في الآخرة. وقد ورد ضمن روائع أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةَ فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا»[1]، فلا ينبغي أن يبيع الإنسان نفسه بأيِّ ثمن سوى الجنة، ولا يليق بالمرء أن يعاين أيامه تتسرب من بين يديه في غير سبيل الآخرة.

(١) نهج البلاغة. حكمة ٤٥٦.

تعريض النفس للهوان

أما المصداق الثالث لخيانة النفس فهو تعريضها للمهانة في الدنيا والعذاب في الآخرة. فإن كلّ من يعرض نفسه للهوان في الدنيا أو الآخرة، فإن هذا يكون خائنًا لنفسه، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾[سورة التحريم الآية: ٦].

حين تحترم نفسك

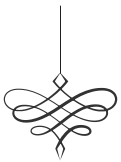

يُعَدّ احترام النفس ركيزة أساسية عند الإنسان السّوي، فهو لا يقبل الاستهزاء لنفسه على أيِّ نحوٍ كان. والهزؤ أو الهزو لغة: هو التحقير أو الإهانة، فالاستهزاء بشيءٍ أو أحدٍ يعني إبداء الاحتقار والإهانة له. والإنسان السّوي كما يرفض أن يحتقره أو يستهزئ به الآخرون، فهو من باب أولى لا يحتقر نفسه ولا يهزأ بها، وكذلك الحال عندما ينأى بنفسه عن احتقار الآخرين أو الاستهزاء بهم، فإنّ الأولى ألّا يوجّه الإهانة والاستهزاء إلى نفسه.

وقد تناول الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام بعض المظاهر والممارسات التي لا معنى لها سوى استهزاء مرتكبها بنفسه، حيث ورد عنه عليه السلام أنه قال: «مَنِ استَغفَرَ بِلِسانِهِ ولَم يَندَم فَقَدِ استَهزَأَ بِنَفسِهِ، ومَن سَأَلَ اللّهَ التَّوفيقَ ولَم يَجتَهِد فَقَد استَهزَأَ بِنَفسِهِ، ومَنِ استَحزَمَ ولَم يَحذَر فَقَدِ استَهزَأَ بِنَفسِهِ، ومَن سَأَلَ اللّه الجَنَّةَ ولَم يَصبِر عَلَى الشَّدائِدِ فَقَدِ استَهزَأَ

بِنَفسِهِ، ومَن تَعَوَّذَ بِاللّه مِنَ النّارِ ولَم يَترُكِ الشَّهَواتِ فَقَدِ استَهزَأَ بِنَفسِهِ»[١].

مظاهر الاستهزاء بالنفس

١. الاستغفار دون ندم

الاستغفار باللسان، مع عدم الندم على الذنب يُعدّ من مظاهر الاستهزاء بالنفس، ذلك أنّ الاستغفار في جوهره لا يتأتى إلّا بعد الإدراك الداخلي لحقيقة الذنب، ومن ثم الاعتذار عنه أمام اللّه سبحانه وتعالى، مع إضمار النية الصادقة في تركه والنفور منه، وعدم العودة إليه مطلقًا. فإذا ما اكتفى المذنب بالاستغفار اللفظي، مع إضمار النية في العودة لارتكاب ذات الذنب، فإنّ ذلك هو عين الاستهزاء بالنفس.

وللشخص أن يتخيّل نفسه وقد أخطأ على شخص آخر، فاعتذر منه ثم عاد لارتكاب الخطأ نفسه بحقّ الشخص ذاته، فهل أبقى المخطئ لنفسه بابًا لقبول العذر مرة أخرى، أم أنّ اعتذاره لا يعدو كونه استهزاءً وسخريةً من الآخرين، كذلك الحال في تصرف الإنسان مع ذاته.

وورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «خَيرُ الاستِغفارِ عِندَ اللّهِ الإقلاعُ والنَّدَمُ»[٢]، وعن الإمام الرضا عليه السلام قال: «الْمُسْتَغْفِرُ مِنْ ذَنْبٍ وَيَفْعَلُهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ بِرَبِّهِ»[٣]، وهل ثمّة ذنب أكثر سوءًا من الاستهزاء باللّه جلّ شأنه؟!

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٣٥٦، حديث١١.
(٢) محمد الريشهري. حكم النّبيّ الأعظم، ج٥، ص٥٩٠.
(٣) الكافي، ج٢، ص٥٠٤، حديث٣.

٢. طلب التوفيق بغير اجتهاد

قد تكون عند الإنسان غاية يريد تحقيقها، فيسأل اللّه أن يحقّق له تلك الغاية، فإن كان جادًّا في طلبه ذاك، فإنّ من المتوقع أن يسعى ويجتهد في سبيل تحقيقه، لا أن يبقى مكانه دون حراك أو سعي، فلا معنى لذلك سوى غياب الجدية في تحقيق الغاية التي يريد، وذلك نوع من الاستهزاء بالنفس.

إنّ الغايات والمطالب، لا تُنال بمجرد إلقائها على كاهل السماء، ليقوم ربّ العالمين بإنجازها نيابة عن العبد، بل على النقيض من ذلك، فالنصوص الدينية تتضمن تأكيدًا متكرّرًا على محورية السّعي في حياة الإنسان، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾، فالأمنيات وحدها لا يمكن أن تحقق الآمال.

وأبعد من ذلك، فالإنسان لن يحقق مراده متى ما اقتصر على الدعاء، دونما بذل جهد في سبيل تحقيق ما يريد من اللّه قضاءه له. قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، فالاستجابة من اللّه مشروطة بالإيمان والعمل الصالح باتجاه الغاية المطلوبة، وجاء عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «خَمْسةٌ لَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ.. ورَجُلٌ جَلَسَ فِي بَيْتِهِ وقَالَ اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي ولَمْ يَطْلُبْ»[1]، وقد ورد عن

(١) جامع أحاديث الشيعة، ج٢٢، ص٥، حديث٢٢.

الإمام عليّ عليه السلام أنه قال: «الدّاعي بِلا عَمَلٍ كَالرّامي بِلا وَتَرٍ»[١].

وورد في الكافي عن كليب الصيداوي أنه قال: قُلتُ لِأَبي عَبدِ اللّـه عليه السلام: أُدعُ اللّه عزّ وجلّ لي فِي الرِّزقِ فَقَدِ التاثَت[٢] عَلَيَّ أُموري. فَأَجابَني مُسرِعًا: لا، أُخرُج فَاطلُب»[٣]، وورد في الكافي أيضًا عن أيّوب الهروي، قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللّهِ عليه السلام إِذْ أَقْبَلَ الْعَلَاءُ بْنُ كَامِلٍ، فَجَلَسَ قُدَّامَ أَبِي عَبْدِ اللّهِ عليه السلام، فَقَالَ: ادْعُ اللّهَ أَنْ يَرْزُقَنِي فِي دَعَةٍ، فَقَالَ: «لَا أَدْعُو لَكَ، اطْلُبْ كَمَا أَمَرَكَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ»[٤]، ومضمون تلك الآيات والروايات أنّ اللّه سبحانه إنما يستجيب الدعاء للمؤمن العامل السّاعي نحو تحقيق مطالبه.

ويأخذ الدعاء دورًا محوريًّا في تصويب الطريق، وتذليل العقبات، أمام السّاعين والعاملين المجتهدين، نحو تحقيق أهدافهم. ومردّ ذلك أنّ حركة الانسان العامل تحتاج إلى أن تكون في الاتجاه الصائب، والمكان المناسب، وهنا تحديدًا يأتي دور الدعاء.

فللدعاء دور كبير في رفع العوائق من أمام الإنسان العامل المجتهد، وأن تكون جهوده مبذولة في موقعها المناسب. فلربما يرمي الإنسان إلى البحث عن جهة أو شخص لقضاء أمر معيّن، كالبحث عن وظيفة

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم، رقم٣٣٧.
(٢) التاثَت عليه الُامور: التبست واختلطت.
(٣) الكافي، ج٥، ص٧٩، حديث١١.
(٤) المصدر نفسه، ج٥، ص٧٨، حديث٣.

جيّدة، أو الحصول على العلاج الطبي المناسب، فتارة يذوق الأمرّين في العثور على الجهة المناسبة، وتارة أخرى ينجح في العثور على الجهة المناسبة دونما عناء كبير، وقد يكون الفارق في الحالتين دعاء العبد وسؤاله ربّ العالمين بأن يسهل أموره ويفتح الأبواب أمامه.

ويبقى الأصل قائمًا في أن يمضي الإنسان في السعي والحركة، ويترك الباقي على ربّ العباد، وقد قيل: «منك الحركة ومن اللّـه البركة»، فإنّ كان الإنسان يسأل اللّه التوفيق من غير سعي، ومن دون أن يبذل كلّ جهده فهذا في الواقع إنما يستهزئ بنفسه.

٣. التفريط وترك الحذر

البحث عن تحقيق الحزم والقوة، مع التفريط في الحذر، وأخذ الاحتياطات، وسدّ الثغرات. حيث جاء في حديث الإمام الرضا عليه السلام: «...ومَنِ استَحزَمَ ولَم يَحذَر فَقَدِ استَهزَأَ بِنَفسِهِ»، ويأتي فعل استحزم بمعنى الرغبة في الظهور بمظهر الحزم والقوة، والاندفاع الواثق نحو أداء العمل، غير أنّ هذا الاندفاع لا ينبغي أن يكون على حساب الحذر، وإهمال نقاط الضعف، والتعرض للوقوع في المطبات.

٤. الاكتفاء بتمنى الجنة

رغبة المؤمنين في الجنة، وخلاصهم من النار، وإمكانية أن تتحول هذه الرغبة إلى استهزاء بالنفس. فقد جاء في الرواية نفسها عنه عليه السلام: «.. ومن سأل اللّه الجنة ولم يصبر على الشدائد فقد استهزأ بنفسه، ومن

تعوّذ باللّه من النار ولم يترك شهوات الدنيا فقد استهزأ بنفسه».

والواقع أنّ غالب الناس ربما يلحّون في السؤال على اللّه سبحانه بأن يدخلهم الجنة، وأن يستنقذهم من النار، غير أنّ دخول الجنة لا ينبغي أن يكون مجرّد أمنية، وإنما على الانسان أن يعلم بأن دخول الجنة لا بُدّ له من ثمن، وأغلى أثمان الجنة هو تحمّل الشدائد، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[سورة البقرة، الآية:٢١٤].

ويتوجب على من يسأل اللّه الجنة أن يدفع الثمن، الذي يكمن على وجه الخصوص في تحمل الشدائد والصبر على المصائب. وكذلك الحال مع من يسأل اللّه النجاة من النار، فثمن ذلك ألّا يسترسل مع رغباته وشهواته. ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»(١)، وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الجَنّةُ مَحفوفةٌ بالمَكارِهِ والصَّبرِ، فمَن صَبرَ على المَكارِهِ في الدُّنيا دَخلَ الجَنّةَ»(٢).

(١) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. صحيح مسلم، حديث٢٨٢٢.
(٢) الكافي، ج٢، ص٨٩، حديث٧.

تقويم العمل بأثره على النفس

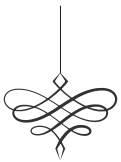

هناك مقياسان لصلاح أيّ عمل يقوم به الإنسان. مقياس يقوّم ذات العمل لجهة كونه عملًا حسنًا أم سيئًا، جيّدًا أم رديئًا، والمقياس الآخر هو ما يرصد آثار ذلك العمل على ذات الإنسان، وما إذا كانت آثارًا إيجابية أم سلبية. فقد يكون العمل في حدِّ ذاته حسنًا، إلّا أنه إذا ما غفل المرء، فلربما ارتدت آثار ذلك العمل الحسن على نفسه ارتدادًا سلبيًّا، وتركت آثارًا سيئة.

وقد يحصل العكس إذا ما ارتكب المرء عملًا سيئًا، ثم استدرك سريعًا، وظلّ متنبهًا ويقظًا، فعندها يصبح تأثير ذلك عليه حسنًا. من هنا يمكن فهم كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «سَيِّئَةٌ تَسُوؤُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّـهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ»[1]، ومقتضى ذلك، أنّ تلك السيئة التي ارتكبها الإنسان ثم ندم وعاد عنها وتلافى الوقوع فيها ثانية، يكون تأثيرها تأثيرًا إيجابيًّا.

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم رقم (٤٦).

طاعة تدفع إلى العجب

ولمزيد من الفهم لمسألة التأثير الإيجابي أو السّلبي للأعمال على ذات الإنسان يمكن التمثيل على النحو التالي؛ فحين يعمل الإنسان عملًا صالحًا لكنه يصاب بالعجب والغرور، وينتابه الشعور بالتعالي على الآخرين، ويغمره الإحساس بالامتلاء والاكتفاء نتيجة ما يعدّه عملًا كبيرًا، فيعني ذلك أن عمل الخير ذاك، قد انعكس على نحو سلبي على النفس، وبات العمل الصالح عديم الجدوى، بل مضرًّا بالذات، ومصدر الضرر هنا ليس كون العمل بذاته سيئًا، بل لما انعكس في النفس من تفاعلات سلبية.

إنّ التعليمات الدينية تدفع الإنسان نحو التزام التوازن النفسي عند إنجاز عمل الخير. فلا ينبغي أن يشعر بحالة الاكتفاء والتعالي نتيجة قيامه بما يعتبره عملًا عظيمًا، ورد في هذا السياق عن الإمام الكاظم عليه السلام في وصيته لأحد أبنائه القول: «يا بني، عليك بالجدّ، لا تخرجنّ نفسك من حدِّ التقصير في عبادة اللّه عزّ وجلّ وطاعته، فإنّ اللّه لا يعبد حقّ عبادته»[1]، ومقتضى ذلك أن يُشعر الإنسان نفسه بالتقصير مهما قدّم من عمل خير.

وفيما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «اَلْإِعْجَابُ يَمْنَعُ مِنَ اَلِازْدِيَادِ»[2]، وذلك لأنّ المعجب بعمله لا يفكّر أبدًا في القيام بالمزيد،

(١) الكافي، ج٢، ص٧٢، حديث ١.
(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم رقم (١٦٧).

فهو مكتفٍ بما أنجز وقدّم، وفي كلمة أخرى له عليه السلام أنه قال: «من كان عند نفسه عظيمًا، كان عند اللّه حقيرًا»[١]، فمن غير المناسب أن يشعر المرء في داخله بأنه مهمّ وعظيم؛ لأنه سيتحول بذلك إلى موقع دنيءٍ عند اللّه تعالى.

وفي رواية ثالثة عنه عليه السلام أنه قال: «إنّ لله عبادًا لا يستكثرون له الكثير ولا يرضون له من أنفسهم بالقليل، يرون في أنفسهم أنهم أشرار، وأنهم لأكياس و..».

وضمن السياق نفسه يمكن فهم الأدعية المنسوبة للأئمة حيث يعترف الإمام المعصوم في دعائه بالذنب أمام اللّه سبحانه وتعالى، وفي ذلك تعليم للناس، حتى لا يشعروا في دواخل أنفسهم بالعجب والاكتفاء، عوضًا عن الشعور بالتقصير تجاه خالقهم وفي قيامهم بأعمال الخير.

وفي كلمة أخرى له عليه السلام في صفة المؤمن أنه قال: «كُلُّ سَعْي عِنْدَهُ أخْلَصُ مِنْ سَعْيِهِ، وَكُلَّ نَفْس عِنْدَهُ أصْلَحُ مِنْ نَفْسِهِ»[٢]، فالمؤمن لا ينخدع ولا يغترّ بالإطراء عند مقايسته بالآخرين لقاء قيامه بعمل الخير، وإنّما على النقيض من ذلك، ينزع المؤمن إلى التقليل من عمله مهما بلغ، واعتبار عمل الآخرين أكثر إخلاصًا لله مهما قلّ، ولربما فاق

(١) علي بن محمد الليثي الواسطي. عيون الحكم والمواعظ، ص٤٦٠.
(٢) الكافي، ج٢، ص٢٢٩، حديث ١.

قليلهم ما عنده من كثير الأعمال، وهذا هو تحديدًا معنى قول الإمام في صفة المؤمن: «كلّ سعي عنده أخلص من سعيه». فالنأي عن الشعور بالاكتفاء والتعالي، والعجب بالعمل الصالح، هو الضمانة بألّا يتحول تأثير العمل الحسن إلى تأثير سلبي على نفسه.

خطأ يقود إلى الاستقامة

في مقابل ذلك، قد يكون تأثير العمل السيئ حسنًا في نفس المؤمن، إذا ما ندم على صدور المعصية والخطأ، وسعى للتكفير عن ذلك. وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن يندفع المرء نحو عمل السيئات حتى يتحصل على التأثير الحسن نتيجة لذلك، فهذا المسلك يدخل ضمن باب تعمّد المعصية وارتكاب الجرم، وإنما المقصود من ذلك هو عندما يسترسل الإنسان، ويتملّكه الهوى، وتغلب عليه شهواته، فيقع في المعاصي، ومن ثم تنتابه حالة من الندم والامتعاض الداخلي، فيدفعه جميع ذلك للتعويض عن تقصيره، عند ذلك يكون تأثير العمل السيء حسنًا. وذلك أشبه ما يكون بالطالب الذي يحرز نتائج طيبة في منتصف العام الدراسي، وسرعان ما يصيبه الغرور، فإذا به يتراجع مستواه نهاية العام. والعكس بالعكس، فقد يقصّر الطالب فيحرز نتائج سيئة في منتصف العام الدراسي، فيكون ذلك دافعًا قويًّا نحو تحسين أدائه الدراسي، وليحرز بعد ذلك نتائج أفضل في نهاية العام. وهذا تمامًا ما يجري إزاء مسألة العبادة وطاعة اللّه سبحانه، فحين يشعر الإنسان بالاكتفاء والتعالي، يفقد أيّ دافع نحو أداء المزيد من أعمال الخير، وعلى النقيض من ذلك

إذا شعر بالندم والتقصير فسيكون ذلك دافعًا نحو التعويض والتلافي.

وهناك جملة من الروايات الشريفة التي تكشف مدى التأثير النفسي للأعمال، وانعكاس ذلك على مصائر العباد عند اللّه سبحانه. فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يدخل رجلان المسجد أحدهما عابد والآخر فاسق، فيخرجان من المسجد والفاسق صدّيق والعابد فاسق، وذلك أنه يدخل العابد المسجد وهو مدلّ بعبادته ـ يمنّ على الله بعبادته ـ ويكون فكره في ذلك، ويكون فكرة الفاسق في التندّم على فسقه، فيستغفر الله من ذنوبه »[١].

فهذا الشعور بالندم الذي ينتاب الفاسق يدفعه إلى المسيرة الصالحة، بينما يدفع الشعور بالغرور والعجب ذلك العابد إلى التراجع. وفي رواية أخرى، عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «إنّ رجلًا كان في بني اسرائيل، عبد اللّه تبارك وتعالى أربعين سنة، فلم يقبل منه، فعلم ـ على نحو أو خبر ـ أن عبادته طيلة الأربعين سنة غير مقبولة، فقال لنفسه، ما أوتيت إلّا منك، ولا الذنب إلّا لك، فأوحى اللّه تبارك وتعالى إليه؛ ذمّك نفسك، أفضل من عبادة أربعين سنة»[٢]، إنّ تلك اللحظة التي شعر فيها بالتقصير أمام اللّه، هي أفضل من عبادته طوال تلك الأربعين سنة.

(١) بحار الأنوار، ج٦٩، ص ٣١٦، حديث ٢١.
(٢) المصدر نفسه، ج ٦٨، ص٢٢٨، حديث ١.

حسن الظن في عاقبة العاصين

إنّ من الضروري بمكان، ألّا يبالغ المرء في تقدير أعماله العبادية وعطاءاته في مجال الخير. وإنما ينبغي أن يُشعر ذاته دائمًا بالتقصير، وإذا ضعفت إرادته ووقع في عمل السوء وارتكاب الذنوب، فإنّ عليه أن يحول ندمه على الذنوب إلى توجه واندفاع نحو الأعمال الصالحة، وصدق ربنا سبحانه وتعالى إذ قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّـهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّـهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٧٠]. وأوحى اللّه سبحانه إلى داوود عليه السلام: «إن عبدي المؤمن إذا أذنب، ذنبًا، ثم رجع وتاب من ذلك الذنب، واستحى مني عند ذكره، غفرت له وأنسيته الحفظة، وأبدلته الحسنة، ولا أبالي وأنا أرحم الراحمين»[1]، وفي هذا إشارة ينبغي الالتفات لها، وذلك حين يُرى أحدهم وقد ارتكب الذنب وعمل المعصية، فلا ينبغي إسقاطه، والنظر إليه نظرة الآيس من رحمة اللّه، وإنه لمن الخطأ الكبير أن يقع الناس في مفارقة غريبة، حين يغفرون لأنفسهم ارتكاب المعاصي مهما بلغت، لكنهم لا يغفرون لغيرهم ما هو أدنى من ذلك.

روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنّ رجلًا قال يومًا: واللّه لا يغفر اللّه لفلان، فقال اللّه عزّ وجلّ: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عمل

(١) جامع أحاديث الشيعة، ج١٤، ص٣٢٧، حديث ١٥٨.

الثاني، بقوله لا يغفر اللّه لفلان»[1]. علينا أن ننظر للآخرين بحسن الظن في عاقبتهم. وقد ورد في الروايات أن إذا رأيت مذنبًا عاصيًا، فلا تقل إنّك أفضل منه، فلعلّ هذا العاصي المذنب يتوب وتحسن توبته، بينما ينتكس الآخر في الذنب والمعصية. فالمطلوب باستمرار النظر قدر الإمكان نظرة إيجابية للآخرين.

(١) وسائل الشيعة، ج١٥ص٣٣٦، حديث ١٣.

الفصل الثالث

في العلاقة مع اللّه

الارتباط باللّٰه بين الاستمرارية والموسمية

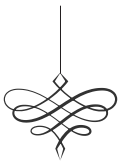

قد تمرُّ بالإنسان ظروفٌ صعبة، وتحدياتٌ قاسية، في وضعه الصحي، أو حالته النفسية، أو وضعه الاجتماعي، ومع هذه الظروف يشعر الإنسان بضعفهِ الذاتي، وأنهُ عاجزٌ عن المواجهة والتحمُّل، أمام التحديات القاسية التي تَمرّ عليه، فهو بحاجة إلى المُساعدة والدعم، فتوجهه فطرته للالتجاء إلى اللّه، إلى القوة المطلقة المهيمنة على الكون.

لماذا يلتجئ الإنسان في مثل هذه الحالات الصعبة إلى اللّه؟!

لأنه يدرك بفطرته أنّ هذه القوة المطلقة هي الأقدر على مساعدته، وهي الأقرب إليه، ولو أراد أن يلجأ إلى أيّ جهة أخرى فقد لا يتيسّر له الطريق والسبيل، لكنه بفطرته يجد الطريق مفتوحًا بينه وبين ربه، لذلك يلتجئ إلى اللّه عند محنه وظروفه الصعبة، والتحديات القاسية التي تمرّ به.

ماذا يعني الالتجاء إلى الله في الأزمات؟

يعني وجود بارقة أمل ورجاء في نفس الإنسان، فيتوجه إلى اللّه منطلقًا من شعوره بأنّ هناك قوة يُمكنها أن تُساعده وتنقذه وتخلّصه، هذا الشعور يعطي الإنسان زخمًا ومعنويات رفيعة، تساعده على تحمّل الظروف الصعبة التي يعيشها.

وحين يفقد الإنسان الأمل في النجاة والخلاص، تخورُ عزيمته، وتنهارُ قواه، لكنه حين يلتجئ إلى اللّه يتحرك الأمل في داخله، وهذا له دور كبير في بحث الإنسان عن الوسائل وتشبّثه بها، أما إذا فقد الأمل لن يبحث عن الوسائل، فالالتجاء إلى اللّه محفّز للإنسان للبحث عن الوسائل والسُبل والأدوات.

ومن بركات وثمار الالتجاء إلى الله

أولًا: يرفع معنويات الإنسان

لو قرأنا قصص الأشخاص الذين تعرضوا لحوادث خطيرة أشرفوا فيها على الهلاك ثم نجو منها، بينما هلك أقرانهم، لتبيّن لنا تأثير المعنويات الرفيعة المنبثقة من ثقة الإنسان باللّه والتجائه إليه سبحانه.

في كلّ سنة هناك آلاف المهاجرين عبر البحر إلى أوروبا، يركبون القوارب غير المهيأة لاجتياز أعالي البحار، فيموت الكثير منهم غرقًا، لكنّ هؤلاء المهاجرين يرون أنفسهم مضطرين لمغادرة بلادهم بسبب الظروف الصعبة التي يعيشونها.

وتنقل التقارير انطباعات وذكريات الناجين منهم، حيث يتحدث بعضهم عن أمله وثقته باللّه، وأنّ ذلك أعطاه طاقة معنوية كبيرة مكنته من النجاة، وإلى جانبه من فقد الأمل فخارت قواه ومات غرقًا، البعض يقول كنت أشجّع من بجانبي، لكن بعضهم يصلون إلى حدّ اليأس، فيقول بعضهم: لا فائدة ولا جدوى!!

الإنسان الذي تخمد شعلة الأمل في داخله لا يبحث عن وسائل، وحتى لو وجد وسيلة يعتقد بعدم جدواها!!

البعض يصاب بمرض فتقترح عليه علاجًا مفيدًا، أو لديه مشكلة ما فتعرض له طريقة للحل، فيجيبك بأن لا جدوى ولا فائدة!!

ثانيًا: يحفزُ الإنسان للبحث عن الوسائل

عندما يلتجئ الإنسان إلى ربه، يتحفّز للبحث عن الوسائل، ويتشبث بها، ولدينا نصوص وتوجيهات دينية تشير إلى هذا الأمر، ورد عن الإمام علي عليه السلام: «كُنْ لِمَا لَا تَرْجُو أَرْجَى مِنْكَ لِمَا تَرْجُو»[1] في بعض الأحيان ترى أنّ الأمل ضعيف والاحتمال محدود، لكن التوجيه الديني يقول لك: هذا الذي تراه ضعيف التحقق، قد يقودك إلى النجاة والحصول على ما تريد، مما يحفّز الإنسان بألّا يستهين بأيٍّ وسيله من الوسائل.

في بعض الأحيان يُعلن عن وظائف شاغرة، فترى الشابّ الجادّ يبادر ويقدّم أوراقه، والبعض الآخر لا يتحفّز، وعندما تشجعه يجيبك

(١) الكافي، ج٥، ص٨٣، حديث٣.

بعبارات اليأس: (لا فائدة)، (لا جدوى) (الإعلانات مجرد كلام)، وذلك لأنّ الأمل خبا في نفسه، فليس لديه دافعية من أجل مواصلة البحث عن الحل.

توكل على اللّه

ورد عن رسول اللّه ﷺ: «مَن سَرَّهُ أن يَكونَ أقوَى النّاسِ فلْيَتَوكَّلْ علَى اللّه»[١].

ماذا يعني أن يتوكل على اللّه؟

يعني أن تكون لديه ثقة وعزيمة تجعله يبادر ويتحفّز، فبمجرد أن تعرض عليه الفكرة المناسبة يجيبك (توكلنا على اللّه) فهي عبارة الثقة والمبادرة، وهذا هو الاستيحاء الصحيح من معنى التوكل على اللّه.

وورد عن الإمام علي عليه السلام: «يا أيُّها النّاسُ، تَوَكَّلوا علَى اللّه وثِقُوا بِهِ؛ فإنّهُ يَكفي مِمَّن سِواهُ»[٢] ثقوا باللّه، بمعنى أن تحفّزوا واندفعوا لعمل ما تستطيعون، ولتكن ثقتكم بالنجاح والخلاص والفوز هي من ثقتكم باللّه سبحانه وتعالى.

وعنه عليه السلام: «أَصْلُ قُوَّةِ الْقَلْبِ التَّوَكُّلُ عَلى اللّه»[٣] فالالتجاء إلى اللّه يعطي الإنسان قوه نفسية كبيرة.

---

(١) كنز العمال، ج ٣، ص ١٠١، حديث ٥٦٨٦.
(٢) عز الدين عبد الحميد بن هبة اللّه بن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٢٧٠.
(٣) عيون الحكم والمواعظ، ص ١٢٠، حكمة ٢٧٣٥.

وعنه عليه السلام: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ ذَلَّتْ لَهُ الصِّعَابُ وَتَسَهَّلَتْ عَلَيْهِ الأَسْبَابُ»[١].

الإنسان الجادّ يبحث عن القصص وعن الشواهد التي تحفّزُه، لكن من تخبو شعلة الأمل في نفسه يبحث عن الشواهد المعاكسة، فيذكر قصص المتعثرين والفاشلين، هذا هو الفارق بين المتوكل وفاقد الأمل.

الآية الكريمة تقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهي تشير إلى مشكلة يعاني منها الإنسان في كثير من الأحيان، وهي أنّ علاقته وارتباطه باللّه حسب الحاجة والاضطرار، إذا كانت لديه حاجة، مرض أو مشكلة، يدعو ويتوسّل ويتضرع إلى اللّه، وإذا انتهت المشكلة يبدأ في التراجع، ويخبو ذلك التفاعل والارتباط باللّه تعالى، وكأنّ العلاقة مع اللّه علاقة موسمية، ويشير القرآن الكريم في أكثر من آية إلى هذه المشكلة.

نحن نرى في حياتنا الاجتماعية بعض هذه النماذج، ترى شخصًا يسأل عنك، ويتواصل معك، ويكثر من زيارتك، لوجود حاجة ما، فإذا انتهت حاجته وقضيت، انتهت علاقته بك، بل ربما يمرّ دون أن يسلّم عليك!!!

ترى، ما هو تصورك لهذا الشخص؟!

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٣٣٨، حكمة ٥٣٧.

تتساءل: أين المشاعر الإنسانية؟!

بل ربما تقول في نفسك: إنّ هذا الشخص لا يستحقّ أن يُحسن إليه!

مع الأسف في كثير من الأحيان هناك من يتعامل مع ربه هكذا ﴿مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾.

كأنّ اللّه لم يحل مشكلته!!

في أكثر من آية يندّد القرآن الكريم بهذه الحالة الموسمية في الارتباط باللّه تعالى:

يقول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[سورة الزمر، الآية: ٤٩].

ويقول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة يونس، الآية: ١٢].

إذا تيسّرت أموره انتهت مشاكله، لا يقول إنّ ذلك بمعونة اللّه وتوفيقه، بل يقول أنا عندي كفاءة وقدرات ومؤهلات!!

في آية ثالثة يقول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾[سورة الزمر، الآية: ٨].

ترى لماذا تتعدد الآيات بهذا المضمون؟

إنّ ذلك يدلّ على ذمّ هذه الحالة، القرآن الكريم يندد بهذه الحالة، ويذكر الإنسان: لا تكن علاقتك مع اللّه وارتباطك به ارتباطًا موسميًّا حسب الحاجة والاضطرار، بل يجب أن تكون في علاقة دائمة ومستمرة مع اللّه سبحانه.

والارتباط الدائم مع اللّه له مظهران:

المظهر الأول: البرامج العبادية

(الوِرد، والأوراد) مصطلح معروف، ويعني التزام الإنسان بذكر اللّه تعالى ضمن برنامج عبادي يومي مستمر، وقد عرف عن العباد والصالحين التزامهم بالأوراد.

ينبغي للإنسان أن يكون له مثل هذا البرنامج، فلا يكتفي بالصلاة الواجبة، بعض الأولياء يلتزمون في وقت (ما بين الطلوعين) بالذكر والتسبيح والدعاء، ومع اختلاف نظام حياة الناس الآن، يمكن للإنسان أن يختار أيّ وقت يناسبه، كوقت الغروب، أو منتصف الليل، المهم أن تجعل لك برنامجًا يوميًّا، تخصصه للعبادة والذكر، كوسيلة من وسائل الارتباط باللّه.

المظهر الثاني: الطاعة والالتزام بأوامر اللّه

وذلك بمراقبة السلوك اليومي، ومدى انسجامه مع أوامر اللّه ونواهيه.

وهذا هو الارتباط الحقيقي باللّه سبحانه وتعالى، من خلال هذين الأمرين يستحضر الإنسان قوة ربه ورحمته، ويكون متصلًا بربه بشكل دائم.

سئل الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ أَكْرَمُ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ؟ قَالَ: أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلَّهِ، وَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَتِهِ»(١).

ومن الارتباط الدائم باللّه يحصل الإنسان على فوائد وعوائد، منها:

١. تكون نفس الإنسان طرية عامرة بالثقة باللّه سبحانه وتعالى دائمًا وأبدًا.
٢. تكون المبادئ والقيم الإلهية حاضرة في نفسه.
٣. يكون أقرب للهداية وأبعد عن المعصية والضلال.
٤. يكون دعاؤه أقرب للإجابة.

يقول تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٥٢].

ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [سورة الرعد، الآية: ٢٨].

فعلى الإنسان أن يجعل ارتباطه باللّه تعالى ارتباطًا دائمًا مستمرًّا، حتى تكون القيم والمبادئ ماثلة أمامه، ويستلهم الثقة والعزيمة والصبر من اللّه سبحانه وتعالى.

---

(١) أحمد بن محمد بن خالد البرقي. المحاسن، ج ٢، ص ٤٣٢، حديث ٢٤٩٩.

حسن الظن بالله

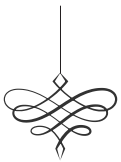

لسوء الظن بالآخرين مظاهر من أبرزها:

أولًا: التشكيك في القول. بمعنى أنك تحتمل عدم الصدق فيمن ينقل لك خبرًا ما، أو تحتمل عدم موافقة ذلك للواقع.

ثانيًا: عدم الاعتماد. حينما تريد تكليف موظف عندك أو ابن لك بمهمة، فهناك من تستطيع الاعتماد عليه لأدائها، وهناك من لا تثق فيه بأن يؤدي لك المهمة بالشكل المطلوب.

ثالثًا: أخذ الحيطة والحذر. حيث يحذر الإنسان ممن يسيء الظن فيه، خوفًا من قصده الإضرار به.

منشأ سوء الظن

متى يكون الإنسان سيئ الظن بأحدٍ آخر؟

ذلك يكون في حالات منها:

١. **التجربة الشخصية**، كأن يسمع كلامًا من شخص ثم يتبيّن له

العكس، أو يكلف شخصًا بمهمة فلا ينجزها له، أو قد يكون رأى منه ضررًا ما. فيكون سوء ظنه من واقع تجربة.

٢. **تجارب الآخرين**، حينما تريد أن تتعامل مع شخص ما، فتسأل الآخرين عنه، فتطمئن إذا مدحوه، أما إذا لم يزكّه أحد أو اشتكوا من سوء عمله، فإنه يصيبك سوء ظن به، فتحجم عن التعامل معه.

٣. **الجهل بالطرف الآخر**. حيث إن عدم التعرف إلى الآخر قد يوقع في سوء الظن به.

سوء الظن باللّٰه

لو أردنا أن نتحدث عن علاقتنا باللّه تعالى هل نجد ما يبرر للإنسان أن يسيء الظن في اللّه سبحانه وتعالى؟ وماذا يعني سوء الظن باللّه ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾؟

المظاهر والحالات التي ذكرناها قد يتخذها الإنسان في التعامل مع اللّه عزّ وجلّ، يعني أنه يشكك في قول اللّه تعالى حين يأمره وينهاه بما هو لمصلحته، لكنه من داخل نفسه لا يطمئن بأن ما أمره اللّه تعالى به لمصلحته فعلًا.

اللّه سبحانه يقول: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾[سورة البقرة، الآية:٢٧٢]، وفي آية أخرى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[سورة البقرة، الآية:٢٤٥] يعدّ اللّه تعالى

من يعطي بالعوض والزيادة، لكن الإنسان بالرغم من أنه يسمع هذا النداء يقف حائرًا حين يريد دفع الصدقة أو الزكاة أو الخمس، حيث يظن أنّ ماله سوف ينقص، وهذا لا شك سوء ظن باللّه تعالى. من يثق في شخص يعتقد بكل ما يقول، ويبادر إلى تطبيق ما يسمعه منه، فكيف نتجاهل قول اللّه تعالى أو نشك فيه؟! حتى إذا لم نفصح عن ذلك لكننا عملًا لا نأخذ كلام اللّه تعالى على محمل الجد.

ينسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام هذا البيت الجميل:

من ظنّ باللّه خيرًا جاد مبتدئًا
والبخل من سوء ظن المرء باللّه

وكذلك من مظاهر سوء الظن باللّه عدم الاعتماد عليه، قد تطلب من شخص أداء مهمة ما، وتشك في أنه سيؤديها لك، ولكن هل يخيب من يعتمد على اللّه؟ من توكل على اللّه كفاه ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

والمظهر الآخر لسوء الظن باللّه تعالى عدم الرضا بقضائه وقدره، حينما يقع الإنسان في مصيبة يظن بأن اللّه يريد به سوءًا، ويتساءل: لماذا يصنع اللّه بي هذا؟!

قد تكره شيئًا ولكن اللّه يرى فيه الخير لك، والعكس صحيح، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[سورة البقرة، الآية:٢١٦] ما دمت لا

تعلم الأصلح لك فثق باللّه تعالى، وارضَ بما يختاره لك. قد تطلب شيئًا من اللّه ويبطئ عليك في الإجابة فتنزعج، لكن المؤمن الواثق باللّه تعالى يقول: «ولعلّ الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور».

يجب على الإنسان أن يحسّن ظنه بربه عزّ وجلّ، فإنّ سوء الظن طريق الردى والهلاك، يقول تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[سورة فصلت،الآية:٢٣] وعن رسول اللّه ﷺ: «أكبر الكبائر سوء الظن باللّه»(١)، وعنه ﷺ: «ليس من عبد يظن باللّه خيرًا إلّا كان عند ظنه به»(٢). وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أوحى اللّه إلى نبيه داوود: ذكر عبادي من آلائي ونعمائي، فإنهم لم يروا مني إلّا الحسن الجميل، لئلا يظنوا في الباقي إلّا مثل الذي سلف مني إليهم، وحسن الظن يدعو إلى حسن العبادة، والمغرور يتمادى في المعصية ويتمنى المغفرة»(٣).

يمدح اللّه تعالى عباده المؤمنين بقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ رضوا بما كتب اللّه تعالى لهم وعليهم، وبما أعطاهم من نعمه وفضله. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن أهنأ الناس عيشًا من كان بما كتبه اللّه له راضيًا»(٤)، وعن الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «من اتكل على حسن

(١) كنز العمال، ج٣، ص١٣٥، حديث ٥٨٤٩.
(٢) بحار الأنوار، ج٦٧، ص٣٨٤.
(٣) الميرزا حسين النّوري الطّبرسي. مستدرك الوسائل، ج١١، ص٢٥١.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم. حديث ٣٨٤٥.

الاختيار من اللّه، لم يتمنَّ غير الحال التي اختارها اللّه له»[١]، وعن الصادق عليه السلام: «إنّ أعلم الناس باللّه أرضاهم بقضاء اللّه عزّ وجلّ»[٢]، وعنه أيضًا: «من لم يرضَ بما قسم اللّه عزّ وجلّ اتهم اللّه تعالى في قضائه»[٣].

(١) تحف العقول، ص٢٣٤.
(٢) الكافي، ج٢، ص٦٠.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٢٠٢.

الرضا بقضاء الله

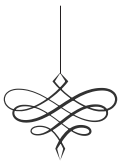

يسعى الإنسان في هذه الحياة، لنيل أكبر قدر من المكاسب لنفسه، وتجنّب أيِّ قدر من الأضرار. إنه يرغب في حيازة الخيرات لنفسه، وإبعاد المساوئ عنها، لكن الإنسان قد لا يتحقق له كلّ ما يريد ويتمنى. إنّ بعض ما يتمنّى الإنسان ويرغب فيه يتحقق له، لكن هناك ما لا يتحقق. بعض المساوئ والأضرار يستطيع الإنسان تجنبها، لكنه قد يقع في بعض الأضرار بلا إرادة منه.

في هذه الحالة، كيف يتعامل الإنسان مع حالتي الكسب والخسارة في هذه الحياة؟ مع حالة الخير أو الشرّ؟

القرآن الكريم يؤسِّس للإنسان وعيًا سليمًا، يتعامل على أساسه، مع هذه الحالات المختلفة، وهذا الوعي يرتكز على نقاط:

فهم طبيعة الحياة

١. أن يعلم الإنسان أنّ أحداث الحياة لا تحصل بالصدفة والاتّفاق،

الحياة لها نظام، وهناك سنن، لا يحصل شيء في الحياة اعتباطًا وصدفة، كما يدور على بعض ألسنتنا مجازًا. فأنت قد تراها صدفة، لكنها جاءت ضمن نظام وقانون، يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[سورة القمر، الآية:٤٩]، ويقول اللّه تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[سورة الحديد، الآية:٢٢]. إنّ كلّ ما يحصل من أحداث وحوادث فهي في علم اللّه، وهي في كتاب نظام الكون والحياة. وبالتالي فإن على الإنسان أن يعرف أن ما يجري من قضايا وأحداث في الحياة، إنما يجري ضمن هذا النظام، وضمن هذه السنن التي تسيّر الكون والحياة.

٢. الإنسان يصيبه نوعان من المشاكل والمصائب، فهناك مصائب مفروضة عليه، لا اختيار له فيها، وذلك حينما تحصل كوارث طبيعية، فهي مفروضة من قبل القوانين الطبيعية، وليس بيد الإنسان أن يمنعها، وكذلك بعض النواقص في جسم الإنسان، وبعض العاهات التي تولد معه، أو تحدث له بسبب أو آخر، إذ قد يفقد نعمة البصر، أو يفقد نعمة السمع، وقد تكون فيه عاهة من العاهات، وهو أمر لا اختيار للإنسان فيه، إنه أمر مفروض حيث وجد الإنسان نفسه ضمن هذه الحالة.

وهناك نوع آخر من المصائب والمشاكل، هي نتاج عمل الإنسان، كأن يقصّر في دراسته فيقع في الرسوب، أو يقصّر

في عمله فتحصل له مشكلة، أو يسيء اختيار بعض الأساليب فيتورط، إن هذه المشاكل والمصائب هي نتاج عمل الإنسان، والقرآن الكريم يفرّق بين هذين الأمرين، تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٠]، كما أنّ بعض المشاكل والمصائب هي نتاج عمل الإنسان واختياره، وبعضها يكون مفروضًا عليه.

٣. على الإنسان أن يبذل كلّ جهده وطاقته لنيل المكاسب واجتناب الأضرار، وإذا وقع في مشكلة، عليه أن يفكر في الخلاص منها. إنّ كثيرًا من المشاكل قد تصيب الإنسان، ويستطيع تجاوزها، أو على الأقل أن يخفّف منها، وأن يقلّل من مضاعفاتها، لا يصحّ للإنسان أن يستسلم أمام المشاكل، وأن يقبل بها كما هي.

لا للتأزّم النفسي

ولكن إذا كان الإنسان في وضع لا يستطيع معه التغيير، كما إذا كانت المشكلة من النوع الأول، المفروضة على الإنسان، فماذا يعمل إن وجد نفسه في هذه الحالة، أو كانت هذه نهاية جهوده وسعيه، بحيث لا يستطيع أن يصنع أكثر مما صنع، ماذا يفعل حينئذٍ؟

هنا يكون الإنسان أمام إحدى حالتين: إما حالة النقمة والاكتئاب، وهذا يعني أن تتضاعف المشكلة عليه، ولا يتلمس الطريق من أجل حلّها، والحالة الأخرى أن يستقبل الأمر برضا وتسليم، حينما لا يمكن

للإنسان أن يتجاوز المشكلة، كما لو حدث له حادث، وأصيب بعاهة. فهذا قضاء وقدر، بغض النظر عن دوره في حصول ما حصل، لكنه قد حصل، وعلى الإنسان أن يتكيف مع هذا الأمر الواقع، هنا تأتي الآية الكريمة: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾[سورة الحديد، الآية:٢٣] ومعها النصوص الكثيرة، التي توجّه الإنسان لكي يكون راضيًا بقضاء اللّه تعالى وقدره، كما نقرأ ذلك في دعاء كميل: «واجعلني بقسمك راضيًا قانعًا»، إذ على الإنسان أن يرضى عن قضاء وقدر اللّه، فهذا هو الواقع الذي تعيش فيه، ما دمت لا تستطيع أن تتجاوزه.

إن الرضا عن اللّه هو أعلى درجات اليقين. ذلك أن بعض الناس حينما تصيبه مشكلة، تكون في نفسه غضاضة، وكأنه يعاتب ربّه، يا ربّ، لماذا حصل هذا الشيء؟ لكنه لا يعلم أن ما حصل له قد يكون دفعًا لما هو أسوأ، ففي بعض الحالات قد يكون الخير سببًا لحصول مشكلة للإنسان، وقد يكون السوء سببًا لخير يحصل للإنسان، وهذا ما نراه في حالات كثيرة. لذلك على الإنسان أن يكون راضيًا عن اللّه تعالى، لا يشعر في داخل نفسه بأيِّ لون من ألوان الاكتئاب والعتاب، وعدم الرضا.

حدثني أحد أقرباء عالم من العلماء في القطيف، في منطقة الدبابية، هو الشيخ أحمد السويكت رحمه اللّه (ت: ١٣٩٥هـ)، وكان عالمًا فاضلًا، لكن ظروفه الاقتصادية كانت صعبة، وكان يعيش على ما يكتب من أوراق للناس، ككتابة وصية أو مبايعة. حدثني أنه في يوم من الأيام،

وكان يومًا قائظًا، وللشيخ غرفة صغيرة، وأمام الغرفة عراء وشمس، جاءه شخص عند الظهر، حتى يكتب له مبايعة أو وصية. وتلبية لطلبه، دخل الشيخ الغرفة يريد أن يكتب لكن الحرّ شديد، والغرفة خانقة، فما استطاع أن يكتب. واضطر أن يخرج خارج الغرفة فكانت حرارة الشمس لاهبة، وما استطاع أن يكتب أيضًا، وكان متألمًا لهذه الحالة التي يعيشها. ثم تذكر أن له صديقًا يمتلك بيتًا فارهًا، وله غرفة في الطابق الثالث، لها نوافذ مفتوحة في الاتجاهات الأربعة، كانوا يسمونها خلوة، فلبس عباءته وعمامته بسرعة، وراح حتى يجلس في تلك الخلوة لصديقه ويكتب الورقة.

في الطريق، كان يدور في نفسه هذا التساؤل: يا ربّ، أهكذا أعيش؟ والإنسان غير محاسب على الهواجس النفسية التي تدور في نفسه، وصل إلى الغرفة الخلوة ورأى صديقه في تلك الغرفة يستقبل الهواء من أربعة أطراف، قال له: هنيئًا لك، هنيئًا لك، تعيش هذا الوضع، هذه هي الحياة، لكن هذا الرجل كان مصابًا بالربو، وبمرض في رئته يمنعه من التنفس، التفت وقال له: يا شيخ، الهواء جيّد، لكني لا أقدر على التنفس، ولا أستفيد من هذا الهواء، أعطني صحتك وخذ هذه الخلوة، أعطني الصحة التي عندك، وخذ هذا البيت. ففهم الشيخ الحكمة وخرج سريعًا وهو يقول: رضيت يا ربِّ بما كتبت لي. لذلك يقول اللّه تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾[سورة البقرة، الآية:٢١٦].

إنّ الإنسان في بعض الأحيان لا يعلم بالضبط ما هي المصلحة في وضعه، وهذا لا يعني أن عليه أن يقبل بالواقع السيئ، بل عليه أن يحاول تجاوزه، لكن إذا تعذّر عليه الأمر، يكون راضيًا بما قسمه اللّه تعالى له.

اللجوء إلى الله

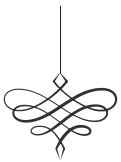

لا يمكن لإنسان أن يدعي القدرة على الإحاطة بنعم اللّه تعالى عليه، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ فالإنسان مفتقر في أصل وجوده إلى اللّه تعالى، وكلما استشعر الإنسان فقره واضطراره استعظم نعم اللّه عليه، فأول النعم وأعظمها نعمة الوجود، ومن المعلوم بالضرورة أنّ الإنسان لا يمتلك بذاته إمكانية الوجود، وإنما هو حالة طارئة على الإنسان بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، كما يقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[سورة الإنسان، الآية:١].

وإذا كان الإنسان في أصل وجوده محتاج إلى اللّه، كذلك الحال فيما عنده من كمالات وجودية من عقل وعلم وسمع وشعور وغيرها.

ورغم وضوح هذه الحقيقة إلّا أنّ الإنسان قد يغفل عن النعم التي يعيش فيها، وتعتريه حالة من الجحود والإنكار، مع كونه لا يملك لنفسه حولًا ولا قوة، فالشعور بالنعم يبدأ بالاعتراف بها، وتحسسها وتلمسها،

ومن ثم التفاعل معها، وشكر منعمها.

تنبيهات إلهية

وقد أجرى اللّه الكثير من الآيات التي تنبه الإنسان إلى واقع فقره وحاجته، فزوال النعم ما هي إلّا منبّه؛ لكونه غير مالك بالذات لهذه النعم، وإنما المالك والقادر عليها هو اللّه المتفضل على الإنسان بها، يقول تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾[سورة النحل، الآية:٥٣]، لذلك نجد أنّ الآداب الشرعية توجه الإنسان إلى هذه الحقيقة حتى لا يغفل عنها، فتأمره بالشكر والحمد، عند الأكل والشرب، وعند النوم واليقظة، وعند كل حركة، مما يجعل الإنسان في حالة تذكر دائم لنعم اللّه.

ومن الأساليب التي تنبّه الإنسان من الغفلة، الصدمات التي تصيبه، فهي كإنذار من قبل اللّه تعالى لتنبيه الغافلين، فما يصيب الإنسان من مرض، أو فقد عزيز، أو خسارة مالية، أو مشكلة اجتماعية، وغيرها، كلها تحمل إشارات تلفت الإنسان إلى ربه وتذكره بنعمه، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ والجأر في اللغة هو تعبير عن الآهات التي تصدر من الألم بلا اختيار من الإنسان، فحينما تصيبه صدمة أو مشكلة، وخاصة إذا كانت شديدة يصعب عليه مواجهتها، حينها يجد الإنسان في عمق شعوره ووجدانه مدى الحاجة إلى ربه فيجأر إليه.

إنّ الإحساس بالفقر وتلمس الحاجة في نفس الإنسان، هي شعور

حقيقي يعبر عن طبيعة تعلقه بإرادة اللّه، وهذه الصرخة التي يطلقها الضمير عند الصعاب، وهذا الاندفاع والتوجه إلى اللّه عند المحن، يجب أن تكون حالة أصيلة، وشعورًا مستمرًا عند المؤمن، وقد أكدت نصوص الشرع على ضرورة التوجه إلى اللّه دائمًا وأبدًا، وليس عند نزول البلايا فقط، أما الإنسان الذي استحكم فيه حب الدنيا والانشداد إليها، فهو بحاجة إلى استثمار هذه المصاعب للتقرب إلى اللّه، حتى يستلهم منه المعنويات، ويحقق في نفسه روح الثبات والصمود عند الشدائد.

القرب من اللّه منبع الطمأنينة والصمود

كلما ازداد الإنسان معرفة باللّه وقربًا منه، ازداد بصيرة في الحياة، وإصرارًا على التحدي والعمل، لهذا فإن الدعاء والمناجاة ليست مجرد ألفاظ تجري على اللسان، وإنما هي بواعث للتفكير، ومبادئ لإعادة صياغة النفس ضد اليأس والإحباط، وحينها تتحول الصعاب عنده إلى فرص حقيقية تعرفه باللّه وتقربه إليه، ورد في الحديث عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «.. وذكر اللّه على كل حال، وليس هو سبحان اللّه والحمد لله ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف اللّه عزّ وجلّ عنده وتركه»[1].

وهنا نذكر بعض الروايات التي تحث على اللجوء إلى اللّه تعالى

(١) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب اللّه المنزل، ج٧، ص٤١٢.

وخاصة عند الشدائد والمحن، لكي نزداد ثقة وأملًا في اللّه سبحانه وتعالى، ورد عن الإمام محمد الباقر صلوات اللّه وسلامه عليه وهو يحدّث أبا حمزة: «يا أبا حمزة! مالك إذا أتى بك أمر تخافه أن لا تتوجه إلى بعض زوايا بيتك، يعني القبلة، فتصلى ركعتين، ثم تقول: يا أبصر الناظرين، ويا أسمع السامعين، ويا أسرع الحاسبين، ويا أرحم الراحمين، سبعين مرة، كلما دعوت بهذه الكلمات سئلت حاجتك»[١].

وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: « إِذَا خِفْتَ أَمْرًا فَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ لَا يَكْفِي مِنْكَ أَحَدٌ وَ أَنْتَ تَكْفِي مِنْ كُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ فَاكْفِنِي كَذَا وَ كَذَا»[٢].

عَنِ ابْنِ أَبِي حَمْزَةَ قَالَ : سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام يَقُولُ لِابْنِهِ يَا بُنَيَّ مَنْ أَصَابَهُ مِنْكُمْ مُصِيبَةٌ أَوْ نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةٌ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُسْبِغِ الْوُضُوءَ ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ أَوْ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ ثُمَّ يَقُولُ فِي آخِرِهِنَّ - يَا مَوْضِعَ كُلِّ شَكْوَى وَيَا سَامِعَ كُلِّ نَجْوَى وَشَاهِدَ كُلِ مَلَإٍ وَعَالِمَ كُلِّ خَفِيَّةٍ وَيَا دَافِعَ مَا يَشَاءُ مِنْ بَلِيَّةٍ وَيَا خَلِيلَ إِبْرَاهِيمَ وَيَا نَجِيَّ مُوسَى وَيَا مُصْطَفِيَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله أَدْعُوكَ دُعَاءَ مَنِ اشْتَدَّتْ فَاقَتُهُ وَقَلَّتْ حِيلَتُهُ وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ دُعَاءَ الْغَرِيقِ الْغَرِيبِ الْمُضْطَرِّ الَّذِي لَا يَجِدُ لِكَشْفِ مَا هُوَ فِيهِ إِلَّا أَنْتَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ فَإِنَّهُ لَا يَدْعُو بِهِ أَحَدٌ إِلَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»[٣].

---

(١) جامع أحاديث الشيعة، ج ٧، ص ٢٦٩.
(٢) الكافي، ج٢، ص٥٥٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٥٦٠.

وغيرها من الأدعية والروايات التي تكرّس الثقة باللّه واللجوء إليه، ومن روائع الأدعية، الدعاء السابع في الصحيفة السجادية، الذي ينبغي لكلّ مؤمن أن يداوم على قراءته، ومطلعه «يا مَنْ تُحَلُّ بِهِ عُقَدُ المَكارِهِ، وَيا مَنْ يُفْثَأُ بِهِ حَدُّ الشَّدآئِدِ، وَيا مَنْ يُلْتَمَسُ مِنْهُ المخْرَجُ إلى رَوْحِ الفَرَجِ». ومن خلال هذه الأدعية يستطيع الإنسان أن يعزز في نفسه الأمل والاطمئنان والثبات في مواجهة مشاكل الحياة.

تعزيز الثقة بالله

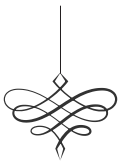

يواجه الإنسان في هذه الحياة كثيرًا من التحديات والضغوط، من خارجه ومن داخله، فهو يواجه قسوةً من الطبيعة التي يعيش في أحضانها، وخاصة في مثل أوقات الزلازل والفيضانات وسائر الكوارث الطبيعية، كما تمرّ عليه صعوبات في توفير متطلبات الحياة، وقد تواجهه ضغوط في علاقاته الاجتماعية، وهي تؤثّر كثيرًا في نفس الإنسان، وخاصة إذا كانت من الدوائر القريبة، فكلّما كانت دائرة العلاقة قريبة كانت ضغوطها أشدّ، إذا كانت للإنسان مشكلة مع شخص ما في بلد آخر، أو بعيدًا عن بيته، فهذا أسهل مما لو كانت المشكلة داخل بيته، مع زوجته أو أولاده.

وكما قال الشاعر العربي طرفة بن العبد:

وظُلْـمُ ذَوِي القُرْبَـى أَشَـدُّ مَضَاضَـــةً

عَلَى المَـرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَـامِ المُهَنَّـــدِ

الأزمات النفسية هي الأخطر

هناك مشاكل قد يعانيها الإنسان من داخله، كاعتلال صحته الجسمية، والأخطر إذا كانت المشكلة في صحته النفسية، مما يشكل مأزقًا وضغطًا كبيرًا على الإنسان، فقد يصاب بالاكتئاب أو الإحباط، وقد تدفعه بعض الحالات النفسية للتفكير في إنهاء حياته، وقد تكون هذه الحالة النفسية نتيجة الإحساس بلا جدوى الحياة، أو الشعور بالفشل العميق، وهذا لا يرتبط دائمًا بالمشاكل المادية، ففي بعض الأحيان تكون المشكلة النفسية انعكاسًا لمشكلة اجتماعية أو فكرية، وأحيانًا يحصل الاضطراب النفسي دون وجود مشكلة خارجية، فهناك أشخاص يمتلكون مواهب، ولديهم إمكانات وقدرات مالية ومكانة اجتماعية، ومع ذلك قد تسيطر عليهم مشاعر التأزّم النفسي، فتضطرب حياتهم ويلجؤون إلى الانتحار، وحسب الإحصائيات الحديثة هناك ١٤٪ من سكان العالم يعانون من الاكتئاب الشديد، أما حالات الانتحار فحدث عنها ولا حرج، فهناك شخصيات لها مواقع ومناصب سياسية، وبعضهم لهم مكانة اقتصادية كبيرة، لكن الحالة النفسية قد تدفعهم للتفكير في إنهاء حياتهم!!

وفي تقرير للمركز الأمريكي لمكافحة الأمراض والوقاية منها، ذكر: أنّ معدلات الانتحار في الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٩٩حتى عام ٢٠١٦ ارتفعت إلى ٣٠٪، ويشير التقرير إلى أنّ سنة ٢٠١٦م شهدت ٤٥ ألف حالة انتحار في أمريكا.

مع أنّ هؤلاء الناس يعيشون ظروفًا حياتية يفترض أنها مريحة ومرفهة، فقد تناقلت الأخبار قبل أسبوعين أنّ إعلاميًّا وطباخًا شهيرًا أمريكيًّا (أنطوني بوردان) انتحر في فرنسا[١]، وكذلك مصممة الأزياء (كايت سبايد)[٢] وجدت منتحرة في نيويورك، وهي تاجرة لها شركة كبيرة مصممة للحقائب المتميزة، باعت شركتها قبل سنتين بمليارين وأربع مئة مليون دولار، ثم أسّست شركة أخرى، مثل هذه المرأة التي تمتلك هذه الإمكانات المادية الهائلة تنهي حياتها بأن تعلق نفسها في مروحة غرفتها وتنتحر!!

الإيمان منبع الاطمئنان

إذًا يواجه الإنسان مثل هذه الأزمات، تارة من خارجه وتارة من داخله، فحاجة الإنسان ماسّة إلى جهة دعم ومساندة، يثق بقدرتها على عونه ومساعدته، وباستجابتها لطلبه ورجائه، وهنا يأتي دور الإيمان باللّه سبحانه وتعالى، حيث لا يتحقق الاطمئنان النفسي إلّا بالإيمان بإله خالق هو على كلّ شيءٍ قدير، يلجأ إليه الإنسان من أجل المساندة والدعم.

حينما يؤمن الإنسان باللّه القادر على كلّ شيء، الرحيم الرؤوف بعباده، فإنه يكون مرتبطًا بجهة دعم تبعث الطمأنينة في النفس، لهذا نجد أنّ حالات الاكتئاب والانتحار في المجتمعات المتدينة أقلّ وأخفّ منها

(١) بي بي سي عربي، ٨ يونيو ٢٠١٨م.
(٢) جريدة الحياة، ٧ يونيو ٢٠١٨م.

في المجتمعات الأخرى، مع أنّ الضغوط الخارجية الحياتية كبيرة في المجتمعات المتديّنة، كما هو الحال في كثير من مجتمعاتنا الإسلامية.

إنّ المفاهيم الدينية تعمّق في نفس الإنسان الثقة بربه، والركون إلى رحمته، والأمل والرجاء في عونه وإغاثته، لذلك تركز آيات القرآن الكريم على إبراز حنو اللّه ورأفته بعباده، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لرَءوف رحَيمٌ﴾، وفِي آية أخرى: ﴿واللّه رءوفٌ بالعباد﴾. والرأفة هي المساعدة في رفع الضرر وإزالة المكروه عن الإنسان، والرحمة أعمّ، وهي إيصال الخير والمسرّة للإنسان، اللّه تعالى يؤكد هذه الصفة دائمًا وأبدًا لذاته تجاه خلقه، كما يوجه الدعوة لعبده الإنسان أن ينفتح عليه، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾.

وعيد مع وقف التنفيذ

وحتى حينما يقع الإنسان في معصية ربه ومخالفته، فإنّ اللّه لا يغلق الباب أمام عبده، ولا يعاقبه إن بادر للتوجه إلى ربه، فمهما كانت ذنوب الإنسان ومعاصيه، فإنّ رحمة اللّه تعالى أوسع، ورأفته أعظم، صحيح أنّ اللّه تعالى قد حذّر عباده من المعصية، وتوعدهم بالعقاب والعذاب إذا اقترفوا المعاصي، لكنّ ذلك التوعد بالعذاب من أجل دفع الناس للاستقامة في حياتهم، وكلّ ما توعّد اللّه به من عذاب وعقاب فهي أحكام مع وقف التنفيذ إن صح التعبير، إذا تمادى الإنسان المخالف

المذنب في معصيته يستحق الحكم عليه بالعذاب ، لكن هل ينفذّ هذا الحكم؟

فتح اللّه تعالى أمام الإنسان أبواب التوبة لكي يتجاوز تنفيذ هذه الأحكام التي يستحقها، وذلك من رأفة اللّه ورحمته بالناس، يقول اللّه تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ هل هناك أكثر من هذا الأمل الواسع الذي يفتحه اللّه سبحانه وتعالى أمام الإنسان؟

لقد ناقش علماء الكلام من المسلمين مسألة الوعد والوعيد، وهم يفرقون بين (إذا وعد) و (إذا توعَّد) إذا وعد بالخير وفى، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أما إذا توعَّد بالعقاب، هل يجب الوفاء بالوعيد؟!

علماء المسلمين يقولون لا يجب الوفاء بالوعيد، عدا فئةٍ من معتزلة بغداد يقولون: يجب على اللّه أن يعاقب العاصي!!

لكن الرأي السائد عند علماء المسلمين أنّ اللّه يفي بالوعد، لكنه قد يتنازل عن الوعيد بمشيئته ورحمته لعباده، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ يظلمون أنفسهم بالمعصية، لكن اللّه ذو مغفرة للناس ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لكن هناك عدة مخارج وعدة طرق للتخلص من هذا العذاب والعقاب الإلهي.

كيف نتحدث عن اللّه لعباده؟

الثقافة الدينية والخطاب الديني ينبغي أن يركز على هذا الأمر، كيف

ينبغي أن نعرف اللّه للناس، كيف نتحدث عن اللّه لخلقه وعباده؟

بعض الخطاب الديني يطيل الحديث عن جانب الوعيد والعقوبات، لكنه لا يركز على الوعد بالمغفرة وبالثواب، وهذا فقدان للتوازن، بعض الدعاة يصورون اللّه تعالى أمام الناس وكأنه جلاد منتقم، لذلك تحصل حالات سلبية في بعض أوساط المتدينين، بسب عدم التوازن في الخطاب الديني، مثل بعض حالات الوسواس والاضطراب في القضايا العبادية، بدايتها من الشعور بالخوف الشديد من عقاب اللّه، يخشى من حدوث خلل في الغسل أو الوضوء يؤدي به إلى النار والعذاب!!

حينما يبالغ الإنسان في مثل هذه الأمور يقع في مشكلات نفسية، بينما إذا تعرف الإنسان إلى ربه الغفور الرحيم الرؤوف بعباده وأنّ رحمته سبقت غضبه، وأنّ رحمته وسعت كلّ شيء، هذه الصورة إذا سكنت قلب الإنسان ترفع معنوياته، وتجعله أقرب إلى ربه، محبًّا له سبحانه، وهناك فرق بين المحبة والهيبة، فهناك شخص تحبه وتنجذب إليه، وشخص تهابه وتخاف منه، لا شك أنّ الشعور بالمحبة هو الشعور الأفضل في نفس الإنسان.

اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يكون شعور العبد تجاهه شعور المحبة، والإحساس بالرحمة والرأفة، صحيح أنه يعرف أنّ اللّه شديد العقاب، لكن هذه الحالة استثنائية قليلة نادرة.

حينما بلغ الإمام زين العابدين عليه السلام أنّ الحَسَنَ البَصْرِي يقول: لَيْسَ

العَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ؟ وَإِنَّمَا العَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا. قَالَ عليه السلام: أَنَا أَقُولُ: لَيْسَ العَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا وَإِنمَّا العَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ مَعَ سِعَةِ رَحْمَةِ اللّهِ»[١].

فالأصل هو الرحمة والرأفة، ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَا خَلَقَ اللّهُ مِنْ شيءٍ إلّا وقَدْ خَلَقَ لَهُ ما يَغلِبُهُ، وخَلَقَ رَحمَتَهُ تَغلِبُ غَضَبَهُ»[٢].

وعن الإمام علي عليه السلام: «اللّهُ أَرحَمُ بِكَ مِنْ نفْسِكَ»[٣].

وكما جاء في الدعاء: «يا مَنْ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَتُهُ، يا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ»[٤].

فالنصوص تركز على هذا المعنى، وخاصة في هذا العصر، حيث يواجه الإنسان مختلف الضغوط في الحياة، ويحتاج إلى مساندة ودعم، وإلى رفع معنوياته، لذلك لا بُدّ وأن تُطرح المفاهيم الدينية التي تقرّب الإنسان إلى ربه، وتفتح أمامه آفاق الأمل، وللأسف هناك بعض المتديّنين نفوسهم ضيقة، حينما يَرَوْن أشخاصًا لديهم بعض المعاصي، ينبذونهم، ولا يأملون فيهم خيرًا، بينما النصوص الدينية تحذّر من مثل هذا التفكير، جاء في وصية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لولده

(١) الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي. إعلام الورى بأعلام الهدى، ص٤٨٩.
(٢) كنز العمّال، ج ٤، ص ٢٥٠، حديث ١٠٣٩٠.
(٣) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص١٧٣.
(٤) بحار الأنوار، ج٩١، ص ٣٨٦، (دعاء الجوشن).

الإمام الحسين عليه السلام: «أي بُنَيَ، لا تُؤيِس مُذنِبًا، فَكَمْ مِن عاكِفٍ عَلى ذَنبِهِ خُتِمَ لَهُ بِخَيرٍ، وكَمْ مِنْ مُقبِلٍ عَلى عَمَلِهِ مُفسِدٌ في آخِرِ عُمُرِهِ صائِرٌ إلَى النّارِ»[١].

لذلك ينبغي التوازن في خطابنا الديني، وأن نتحدث عن رأفة اللّه، ورحمته بعباده، لكي نرفع معنويات الإنسان، ونحبّبه إلى اللّه، وكم من الأحاديث القدسية التي تدعو إلى حسن الدعوة إلى اللّه تعالى، كما ورد في الحديث القدسي أنّ اللّه خاطب نبيه داوود عليه السلام: «حَبِّبني إلى عِبادي»[٢].

إنّ نظرة المتدينين لمن يرونه مخالفًا للتدين والالتزام، ينبغي ألّا تكون نظرة سوداء قاتمة، بل عليهم أن يعرفوا أنّ رحمة اللّه أوسع وأعظم وقد تشمل هذا الإنسان.

(١) تحف العقول، ص ١٠٠.
(٢) كنز العمّال، ج١٥، ص ٨٧٢، حديث ٤٣٤٦٧.

معنى التوكل على الله

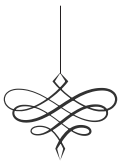

هناك مفاهيم إذا لم تعرف على حقيقتها فإنها تسبب للإنسان انزلاقات في فكره وسلوكه، كما أنّ هناك وسائل تستلزمها الحياة، لكنها إذا لم تستخدم بالشكل الصحيح فإنها تضرّ وتؤذي.

التوكل على اللّه، هذا المفهوم الذي يتلقاه الإنسان المسلم من بيئته ومن أجوائه الدينية، ماذا يعني؟ وكيف يتعامل معه؟

البعض يفهمه على أنه السكون والركون، وعدم العمل. يتمنّى الشيء وينوي التوكل على اللّه، وهذا لا شك أمرٌ خطأ، يسمى التواكل وليس التوكل. التوكل أن يعمل الإنسان للشيء الذي يريد تحقيقه بمقدار استطاعته، مستمدًا قوته من اللّه تعالى.

وفي أيّ عمل يقوم به الإنسان قد يواجه نوعين من المشاكل: مشاكل من داخل نفسه، وهي الهواجس والشكوك التي تدور في باله، حول إمكانية النجاح فيما هو مقدم عليه، وثقته بذاته في إنجازه، هل

أستطيع أم لا؟ سهل أم صعب؟ وهذه لها أثر في أن تقعده عن العمل.

وهناك مشاكل خارجية حيث يواجه عقبات في مسيرة حياته، وهي أيضًا تؤثر عليه سلبًا بأن ترجعه إلى الوراء، بل قد توقفه عن العمل.

هذه المشاكل بنوعيها تتطلب من الإنسان قدرة على مواجهتها والتغلب عليها، والتوكل هي القدرة الخارقة التي تقاوم هذه المشاكل، فما دام الإنسان واثقًا من نفسه، ومن عمله، فهو يمضي في أمره ويقول: توكلت على اللّه.

التوكل حالة نفسية تصدّ الخوف والفشل، وتدفع المتوكل على اللّه إلى الأمام، والمضي قدمًا لتحقيق هدفه، بخلاف المتواكلين، أو من لا يتكلون على اللّه حق الاتكال، فإنهم وأمام أدنى عقبة يتراجعون.

لهذا يمدح اللّه عباده العاملين المتوكلين وليس القاعدين، كما في الآية الكريمة: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ ثوابهم عظيم، وصفتهم الصبر ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

ويقول تعالى في آية أخرى، حول من يواجه عقبات اجتماعية تثبطه عن عمله الذي يراه صحيحًا: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [سورة آل عمران: الآية١٧٣].

كيف نتوكل على اللّه؟

هكذا يعلمنا القرآن الكريم كيف يتوكل المؤمن على ربه، ورسول

اللّه ﷺ كان يوضح إلى أصحابه معنى التوكل على اللّه تعالى وأهميته، كما ورد عن أنس بن مالك قال: قال رجل: يا رسول اللّه، أعقلُها ـ يعني دابته ـ وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: اعْقلها وتوكل[١]. وذات يوم رأى رسول اللّه ﷺ قومًا لا يزرعون، قال: ما أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون. قال: لا بل أنتم متواكلون[٢].

وروي أن قومًا من أصحاب رسول اللّه ﷺ لما نزلت الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم قال: ما حملكم على ما صنعتم؟ فقالوا: يا رسول اللّه، تكفّل لنا اللّه بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة، قال: إنه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب[٣].

وعنه ﷺ: «يا أيها الناس، توكّلوا على اللّه، وثقوا به، فإنه يكفي ممن سواه»[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أقوى الناس إيمانًا، أكثرهم توكلًا على اللّه سبحانه»[٥].

---

(١) محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي. سنن الترمذي، ج٤، ص٧٧، حديث ٢٦٣٦.
(٢) مستدرك الوسائل، ج٢، ص٢٨٨.
(٣) الكافي، ج٥، ص٨٤.
(٤) كنز العمال، ج٣، ص٧٠٣، حديث ٨٥١٣.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم.

وعنه عليه السلام: «من وثق باللّه توكل عليه»[١].

وعنه عليه السلام أيضًا: «من توكل على اللّه ذلّت له الصعاب، وتسهّلت عليه الأسباب»[٢].

وفي رواية أنّ لقمان قال لابنه: «يا بني، ثق باللّه ثم سل في الناس هل من أحد وثق باللّه فلم ينجه؟ يا بني، توكل على اللّه ثم سل الناس من ذا الذي توكل على اللّه فلم يكفه؟»[٣].

هذه الروايات تعلمنا كيف نتوكل على اللّه؟ وهناك جانب آخر يعلمنا هذا الأمر أيضًا وهو الأدعية الواردة عن أئمة أهل البيت، وهي ذات مضامين عظيمة، تغرس في نفوسنا مفهوم التوكل على اللّه عزّ وجلّ، وألّا تكون المشاكل مهما كثرت سببًا لليأس والإحباط.

ومن تلك الأدعية المباركة مناجاة المعتصمين للإمام زين العابدين عليه السلام يقول فيه: «أَللَّهُمَّ يا مَلاذَ اللائِذِينَ، وَيا مَعاذَ الْعآئِذِينَ، وَيا مُنْجِيَ الْهالِكِينَ، وَيا عاصِمَ الْبآئِسِينَ، وَيا راحِمَ الْمَساكِينِ، وَيا مُجِيبَ الْمُضْطَرِّينَ».

إلى أن يقول: «وَما حَقُّ مَنِ اعْتَصَمَ بِحَبْلِكَ أَنْ يُخْذَلَ، وَلا يَلِيقُ بِمَنِ اسْتَجارَ بِعِزِّكَ أَنْ يُسْلَمَ أَوْ يُهْمَلَ. إلهِي فَلا تُخْلِنا مِنْ حِمايَتِكَ،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) بحار الأنوار، ج٦٨، ص١٥٦.

وَلاَ تُعْرِنَا مِنْ رِعَايَتِكَ، وَذُدْنا عَنْ مَـوارِدِ الْهَلَكَةِ، فَإِنَّا بِعَيْنِكَ وَفِي كَنَفِكَ، وَلَكَ أَسْأَلُـكَ بِأَهْـل خاصَّتِكَ مِنْ مَلائِكَتِكَ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ بَرِيَّتِكَ، أَنْ تَجْعَلَ عَلَيْنا واقِيَةً تُنْجِينا مِنَ الْهَلَكاتِ، وَتُجَنِّبُنا مِنَ الآفاتِ، وَتُكِنُّنا مِنْ دَواهِي الْمُصِيباتِ، وَأَنْ تُنْزِلَ عَلَيْنا مِنْ سِكَيْنَتِكَ، وَأَنْ تُغَشِّيَ وُجُوهَنا بِأَنْوارِ مَحَبَّتِكَ، وَأَنْ تُؤْوِيَنا إلى شَدِيدِ رُكْنِكَ، وَأَنْ تَحْوِيَنا فِي أَكْنافِ عِصْمَتِكَ بِرأْفَتِكَ وَرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

عبادة الأحرار

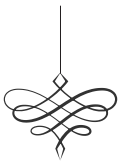

علينا أن نلتفت إلى بعض زوايا العظمة في شخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأن نأخذ الدروس والعبر من سيرته، ومن أهم تلك الجوانب: علاقته مع اللّه سبحانه وتعالى، فهو يضع منهاجًا لتوجّه الإنسان العبادي لربّه، وهذا المنهاج يعتمد على قاعدتين:

الأولى: قاعدة المعرفة

إذا تعرّف الإنسان إلى ربه، وعرف شيئًا من عظمته ورحمته، فإن هذه المعرفة تدفعه لعبادة اللّه، وتجعله مقبلًا عليها. والذين لا يعبدون اللّه سبحانه إما أنهم يجهلون اللّه خالقهم، أو أنهم غافلون عن عظمته سبحانه وتعالى.

أمير المؤمنين علي عليه السلام يرسي هذه القاعدة، ليس من أجل أن هذه العبادة تعود بمردود على الإنسان، أو تدفع عنه ضررًا، وإنما لأن الخالق يستحقّ أن يعبد، فقوله عليه السلام: «إِلَهِي مَا عَبَدْتُكَ خَوْفًا مِنْ عِقَابِكَ، وَلاَ

طَمَعًا فِي ثَوَابِكَ، وَلَكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ»[١] وهذا لا يعني أن عليًّا لا يخاف عقاب اللّه، ولا يرغب في ثوابه، وإنما يعني أن الدافع لعبادة اللّه بالدرجة الأولى عند علي عليه السلام هي معرفته لعظمة اللّه سبحانه وتعالى. ولتوضيح هذه العبارة نضرب المثل التالي:

بالنسبة لتبادل الاحترام بين الناس، هناك شخص أحترمه حتى أحصل على المزيد من عطائه، وآخر أبدي له الاحترام والتقدير حتى أدفع عن نفسي سوءه، والأذى الذي قد يصدر منه. وفي المقابل، هناك شخص أقدم له الاحترام والتقدير لا لكسب شيء من عطائه أو لدفع شيء من شرّه؛ بل لأنه يستحقّ الاحترام، حيث تتحلى نفسه بالكثير من المزايا والكمالات.

وعودة إلى عبارة أمير المؤمنين التي يلفت فيها نظرنا إلى أنه لا يجب أن نتعامل مع اللّه تعالى بعقلية الخوف أو الطمع، وإنما يجب أن نلتفت إلى أن اللّه تعالى هو أهل للعبادة والخضوع، هذا المعنى للعبادة ترجمة واضحة للقاعدة الأولى وهي قاعدة المعرفة.

الثانية: قاعدة الشكر

الطمع والخوف يرتبطان بأمر مستقبلي، والشكر يرتبط بأمر سابق، فلو أنّ إنسانًا صنع لك معروفًا وأحسن إليك في الماضي فتارة:

تقدم له الشكر على إحسانه.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤١، ص١٤.

وتارة أخرى تقدم له الشكر؛ لأنك تريد أن يدوم التواصل معه من أجل استمرار وصول إحسانه ومنفعته إليك. أمير المؤمنين عليه السلام يقول: عليك أن تشكر اللّه على ما أسبغ عليك من نعمه، فالمنعم يستحقّ الشكر.

وقوله عليه السلام: «إِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللّـهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ»، أيّ لمصلحة مستقبلية يريدونها من اللّه فتلك عبادة التّجار، يعطي حتى يأخذ.

«وَإِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللّـهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ»، أي: خوفًا من عذابه، وألّا يعطيهم النعمة التي يريدونها، فتلك عبادة العبيد.

«وَإِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللّـهَ شُكْرًا فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ»[1]. فالأحرار هم الذين يشكرون اللّه على ما أعطاهم.

بين عبادة وعبادة

والسؤال المهم هو: هل هناك فرق بين أن ينطلق الإنسان في عبادته من المعرفة والشكر، أو ينطلق من الرغبة والخوف؟

والجواب على ذلك: نعم هناك فرق، حيث يتجلى ذلك الفرق في أنّ من يعبد من أجل الرغبة أو الرهبة، فإنه يكتفي بالمقدار الذي يظن أنه يحقّق له ذلك، مثل الموظف الذي يعمل بمقدار الراتب الذي يعطيه إيّاه ربّ العمل، كذلك الذي لا يصلي إلّا ما فرضه اللّه من الصلوات

(١) نهج البلاغة، حكمة ٢٣٧.

الخمس اليومية، طمعًا في الثواب، وتجنبًا من عقوبة ترك الصلاة فقط.

أما الإنسان الذي يصلي لأنه يرى اللّه أهلًا للعبادة، ويتعبّد حتى يشكر اللّه على ما أسدى إليه من النعم، وأفاض عليه من الخير، فإنه عاشق يخدم معشوقه تقربًا إليه، وحبًّا له. إن هذا اللون من العبادة لا يكون بمقدار أداء ما يسقط به الواجب فقط، وإنما بمقدار ما يتمكن ويستطيع، فأداء الصلاة الواجبة مع كافة مستحبّاتها، هي لمن يعبدون اللّه؛ لأنه أهل للعبادة، وشكرًا له على آلائه وفضله ونعمه، لذلك لا يكتفون بالحدّ الواجب، وإنما يطالبون أنفسهم بأقصى ما يستطيعون ويتمكّنون، وهكذا كانت عبادة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

علي وعبادة العاشق للّه

قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة: «أما العبادة فكان أعبد الناس، وأكثرهم صلاة وصومًا، ومنه تعلم الناس صلاة الليل، وملازمة الأوراد، وقيام النافلة، وما ظنّك برجل يبلغ من محافظته على ورده: أن يبسط له نطع بين الصفين ليلة الهرير، فيصلي عليه ورده، والسّهام تقع بين يديه، وتمرّ على صماخيه، يمينًا وشمالًا، فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته، وما ظنّك برجل كانت جبهته كثفنة البعير لطول سجوده»[1].

أما بالنسبة للروايات التي تقول إنه كان يصلي في اليوم والليلة ألف

(١) ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة، ج١، ص٢٧.

ركعة، فليس المقصود الرقم، بل المقصود أنه كان يصلي أكبر عدد ممكن من الركعات في اليوم والليلة، فهو توصيف للكثرة.

أما الدعاء فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام رَجُلًا دَعَّاءً»[١] ـ بمعنى كثير الدعاء، وقد حفظ لنا التاريخ شيئًا من أدعيته الرائعة، وكيف كان يناجي اللّه سبحانه وتعالى. فقد نقل عن أبي الدرداء قوله: (شهدت علي بن أبي طالب بشويحطات النجار[٢]، وقد اعتزل من مواليه، واختفى ممن يليه، واستتر بمغيلات النخل[٣]، فافتقدته وبعد عليَّ مكانه، فقلت: ألحق بمنزلة، فإذا أنا بصوت حزين ونغمة شجي، وهو يقول:

«إلهي كم من موبقة حملت عني مقابلتها بنعمتك، وكم من جريرة تكرّمت عن كشفها بكرمك، إلهي إن طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا أؤمل غير غفرانك، ولا أنا براجٍ غير رضوانك. فشغلني الصوت واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب عليه السلام بعينه، فاسترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغابر، ثم فرغ إلى الدعاء والبكاء والبثّ والشكوى، فكان مما به اللّه ناجى أن قال:

«إلهي أفكر في عفوك فتهون عليَّ خطيئتي، ثم أذكر العظيم من

(١) الكافي، ج٢، ص٣٠١.
(٢) الشَّوْحَط: ضَربٌ من شَجر الجبال، تتّخذ منه القِسِيّ.
(٣) بمغيلات النخل: أي النخل الكثيف.

أَخْذِكَ فتعظم عليَّ بليتي».

ثم قال: «آهٍ إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها، فتقول خذوه، فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، يرحمه الملأ إذا أذن فيه بالنداء»، ثم قال: «آهٍ من نار تنضج الأكباد والكلى، آهٍ من نار نزّاعة للشوى آهٍ من غمرة من ملهبات لظًى، قال: ثم أنعم في البكاء فلم أسمع له حسًّا»[1].

(١) بحار الأنوار، ج٨٤، ص١٩٥.

سعة رحمة الله

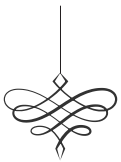

الوجود والحياة نعمة من نِعم اللّه سبحانه وتعالى على الإنسان؛ حيث تفضّل جلّ اسمه عليه بالخلق والإيجاد، وقد أوجد اللّه هذا الكائن ليعيش في رحاب رحمته ونعمه، وهذا ما قرّرته الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[سورة هود، الآية: ١١٩].

لكن إذا كان الأمر كذلك، وأنّ اللّه سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان للعيش برحمته ورحمانيّته، فلِمَ هذه الآيات القرآنيّة التي تتوعّد بالعقاب والجزاء يوم القيامة؟

إذا قرأنا الآيات القرآنية بمجملها، وتأملنا فيها، نشاهد أنّ الآيات التي تبشّر الإنسان بعفو خالقه ورحمته هي أشمل وأكثر من الآيات التي تتحدّث عن العقاب والعذاب، بل إن العقاب والعذاب إنما هو لإصلاح الإنسان وتقويمه وردعه؛ فحينما يتوعدّ اللّه عبده العاصي المنحرف بالعقاب والعذاب، فالمقصود من ذلك: تحذيره وإبعاده

عن المعاصي لأنّها تضره، وبغية توجيه الإنسان نحو خيره ومصلحته، وهذا نظير: تهديد المعلّم تلميذه بإنقاص درجاته وعلاماته، والفشل في الامتحان، حينما يريد شحذ همّته للدراسة، هذا التلويح والتهديد إنما يهدف لتوجيه الإنسان للاستقامة والالتزام، وإلّا فإنّ اللّه سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان ليرحمه كما نصّت الآية الكريمة.

لكن بعض الناس حينما يصرّون على الإجرام والمعصية والذنب، وخاصّة إذا نازعوا الخالق كبرياء وجوده وتوحيده؛ فأنكروا وجوده أو أشركوا به، مع اتضاح الحقيقة لهم، فلا شكّ في استحقاقهم للعقاب في مثل هذه الحالة.

ظلم الناس جريمة كبرى

إنّ من يظلم الناس ويمارس الإجرام بحقّهم، فلا إنصاف في مرور جريمته من دون عقوبة وعذاب؛ وإلّا عُدَّ إغراءً بالظلم والإجرام، من هنا خاطب اللّه تعالى البشريّة بهذه اللغة اللطيفة الرحيمة ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾[سورة النساء، الآية: ١٤٧]، فماذا يفعل اللّه بعقاب الناس؟! هو لا يلتذّ بذلك ولا يتشفّى، وإنما يلجأ لذلك من سكنت نفسه رغبة الانتقام، ومن يريد أن يعوّض عن خسارة خسرها، ولا شكّ أنّ اللّه أعلى من ذلك، لهذا لا يريد أن يعذّب أحدًا من خلقه، ولا تدخل في دائرته ميزة من وراء هذا العذاب على الإطلاق، فإذا شكرت البشريّة خالقها، من خلال امتثال الواجب الملقى عليها في هذه الحياة فلا عذاب في البين، بل حتى لو أخطأ بعض بني البشر خطأ خارجًا عن

دائرة إنكار اللّه والشرك به، وخارجًا عن دائرة ظلم الآخرين والتجاوز على حقوقهم وحرماتهم... فإنّ باب اللّه سبحانه وتعالى مفتوح وواسع أمام من تاب وآمن وعمل صالحًا بعد ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ...﴾[سورة النساء، الآية: ٤٨].

كما نلاحظ التأكيد من قبل الإمام زين العابدين عليه السلام على حقيقة الرحمة الإلهيّة؛ حيث يقول مخاطبًا اللّه سبحانه وتعالى: «اللَّهُمَّ فَإِنِّي امْرُؤٌ حَقِيرٌ، وَخَطَرِي يَسِيرٌ، وَلَيْسَ عَذَابِي مِمَّا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَلَوْ أَنَّ عَذَابِي مِمَّا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ لَسَأَلْتُكَ الصَّبْرَ عَلَيْهِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَكَ، وَلَكِنْ سُلْطَانُكَ اللَّهُمَّ أَعْظَمُ، وَمُلْكُكَ أَدْوَمُ مِنْ أَنْ تَزِيدَ فِيهِ طَاعَةُ الْمُطِيعِينَ، أَوْ تَنْقُصَ مِنْهُ مَعْصِيَةُ الْمُذْنِبِينَ...»[1].

التبشير برحمة الله

وقد وردت نصوص كثيرة في سياق التبشير بواسع المغفرة الإلهيّة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «... يَهُمُّ الْعَبْدُ بِالْحَسَنَةِ فَيَعْمَلُهَا فَإِنْ هُوَ لَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ حَسَنَةً بِحُسْنِ نِيَّتِهِ، وَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَشْرًا، وَيَهُمُّ بِالسَّيِّئَةِ أَنْ يَعْمَلَهَا فَإِنْ لَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا أُجِّلَ سَبْعَ سَاعَاتٍ، وَقَالَ صَاحِبُ الْحَسَنَاتِ لِصَاحِبِ السَّيِّئَاتِ ـ وَهُوَ صَاحِبُ الشِّمَالِ ـ لَا تَعْجَلْ عَسَى أَنْ يُتْبِعَهَا بِحَسَنَةٍ تَمْحُوهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الْحَسَناتِ

(١) الإمام زين العابدين علي بن الحسين. الصحيفة السجاديّة (من دعائه عليه السلام في الرهبة) ص٢٤٨.

يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾...»[١].

وورد في حديث آخر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا أُجِّلَ مِنْ غُدْوَةٍ إِلَى اللَّيْلِ؛ فَإِنِ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ»[٢].

كما تواترت الآيات والأحاديث عن سعة رحمة اللّه بعباده يوم القيامة، فإن الغفران الإلهيّ يتحصّل لأدنى سبب وأقلّ مبرّر يصدر من العبد في طريق الأوبة والتوبة؛ فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: إذا كان يوم القيامة نشر اللّه تبارك وتعالى رحمته حتى يطمع إبليس في رحمته[٣].

ونختم هذه الفقرة برواية وردت عن أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام قال فيها: «إِنَّ آخِرَ عَبْدٍ يُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ فَيَلْتَفِتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْجِلُوهُ، فَإِذَا أُتِيَ بِهِ قَالَ لَهُ: عَبْدِي لِمَ الْتَفَتَّ؟

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا كَانَ ظَنِّي بِكَ هَذَا.

فَيَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: عَبْدِي وَمَا كَانَ ظَنُّكَ بِي؟

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كَانَ ظَنِّي بِكَ أَنْ تَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي وَتُدْخِلَنِي جَنَّتَكَ.

فَيَقُولُ اللَّهُ مَلَائِكَتِي: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَبَلَائِي وَارْتِفَاعِ مَكَانِي، مَا

(١) الكافي، ج٤، ص ٢٢٤ـ٢٢٥.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٣٥.
(٣) بحار الأنوار، ج٧، ص ٢٨٧، حديث ١.

ظَنَّ بِي هَذَا سَاعَةً مِنْ حَيَاتِهِ خَيْرًا قَطُّ، وَلَوْ ظَنَّ بِي سَاعَةً مِنْ حَيَاتِهِ خَيْرًا مَا رَوَّعْتُهُ بِالنَّارِ، أَجِيزُوا لَهُ كَذِبَهُ وَأَدْخِلُوهُ الْجَنَّةَ.

ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: مَا ظَنَّ عَبْدٌ بِاللَّهِ خَيْرًا إِلَّا كَانَ عِنْدَ ظَنِّهِ بِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِين﴾[سورة فصّلت، الآية: ٢٣]»[1].

هكذا هي الرحمة الإلهيّة واسعة وعظيمة، من هنا وجب على الإنسان أن يعيش بين الرجاء والخوف من عذاب اللّه وسخطه.

كيف يشكر الخالق عبده

لقد وصف اللّه نفسه بالشاكر العليم، كما جاء ذلك في آيات عديدة من الكتاب الكريم، التي وصفت اللّه بالشاكر والشكور، من قبيل: ﴿وَكانَ اللَّهُ شاكِرًا عَلِيمًا﴾[سورة النساء، الآية: ١٤٧]، ﴿إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [سورة فاطر، الآية: ٣٤.]، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيم﴾[سورة البقرة: الآية: ١٥٨]، ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيم﴾[سورة التغابن، الآية: ١٧].

ونتساءل هنا عن معنى هذا الشكر من اللّه تعالى، فالشاكر يأتي من الشكر، الذي هو الثناء في مقابل المعروف، فماذا يقدّم العبد لربه حتى يقدّم اللّه تعالى له الشكر؟

والجواب: حينما يطيع الإنسانُ ربه من خلال الأعمال الصالحة،

(١) الشيخ الصدوق. ثواب الأعمال وعقابها، الطبعة الثانية ١٩٨٤م، (قم: منشورات الرضي)، ص١٧٣.

فإن اللّه سبحانه وتعالى يكافئه بالخير، وهذه المكافأة يعبّر عنها الخالق بأنها شكر مقدّم منه للإنسان المطيع، وكم هو شرف عظيم للإنسان أن يتقدّم خالق الوجود ومفيضه بالشكر له، حينما يصليّ، ويصوم، ويتصدّق، ويمارس عملًا صالحًا، ويبتعد عن معصيّة اللّه عزّ وجلّ؟ وليس الشكر الذي يقدّمه الخالق للعبد شكرًا بالألفاظ والكلام، وإنما يتعامل مع الإنسان المطيع على هذا الأساس، فيزيد له الخير ويجزل له الثواب، حنانيك يا ربّ، ما أعظمك وألطفك بعبادك، وعلينا الاقتراب من الوجود الذي يرحمنا وإليه مصيرنا، فلا أحد ينفعنا سواه، ولا أحد يحتضننا غيره.

الإحساس بالرحمة الإلهية

لعلّ الإحساس بالرحمة الإلهيّة يتجلّى حينما يصاب الإنسان بمرض عضال، بحيث يقرّر الأطباء عدم إمكانيّة أن يقدّموا له شيئًا يُسهم في علاجه وتسكين ألمه، وعندها تنهمر دموع أقاربه وأصدقائه المحيطين به، إثر مصيره المحتوم الذي لا حول لديهم ولا قوّة في تغييره أبدًا، لكن التوجّه والرجاء إلى اللّه يتحرّك ويثور في أعماق الإنسان، وكم هي الحوادث التي نسمع بها من هنا وهناك، عن أشخاص قد انتهت حياتهم ظاهرًا، لكن اللّه تعالى منّ عليهم بالصحّة والعافية والحياة، وقد سمعنا بالزلزال[1] الذي حصل في جزيرة هايتي بقوة ٧ درجات على مقياس رختر، وقد أودى بحياة أكثر من ٢٠٠ ألف شخص وشرّد حوالي ١,٥

(١) وقع الزلزال في ١٢/ ١/ ٢٠١٠م.

مليون شخص من منازلهم.

وقد تمكنت فرق الإنقاذ من انتشال فتاة (١٦ سنة) من تحت الأنقاض وذلك بعد مرور ١٥ يومًا كاملًا من وقوع الزلزال، في حادثة تعدّ نادرة من نوعها في قضايا الناجين من الزلازل. ووصف أحد رجال الإنقاذ اكتشاف الفتاة المراهقة التي كانت تحت الأنقاض بعد أسبوعين من الزلزال بأنه «معجزة»[١]، وهذا مظهر من مظاهر الرحمة الإلهية.

أمثال هذه الشواهد الحيّة تدعونا إلى التوجّه إلى اللّه بشكل دائم، بقلوبنا ونفوسنا وعواطفنا، وأن نبتعد عن معصية اللّه، وأن نقبل على طاعته؛ فإنه سبحانه وتعالى يحبّ من اقترب منه، فقد ورد عن رسول اللّه ﷺ أنّ اللّه عزّ وجلّ قال: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا»[٢].

(١) موقع بي بي سي عربي، الأربعاء، ٢٧ يناير/ كانون الثاني، ٢٠١٠.
(٢) صحيح مسلم، كتاب التوبة، ج٤، ص ٢١٠٢، حديث ٢٦٧٥.

العفو الإلهي

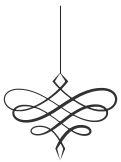

خلق اللّه تعالى البشر تفضّلًا منه، وأفاض عليهم نعمه وخيره، وأراد لهم أن يعيشوا في هذه الدنيا حياة طيبة سعيدة. غير أنّ المشيئة الإلهية أرادت أن تتحقق السعادة والصلاح في حياة البشر انطلاقًا منهم وباختيارهم، لا أن تكون مفروضة عليهم، ورغمًا عنهم، وبعبارة أدقّ؛ أن يحدّدوا مصيرهم مخيّرين لا مسيّرين. بخلاف سائر الكائنات الأخرى، التي جعلها سبحانه مسيرة في أسلوب حياتها. وقد أودع اللّه في الإنسان نزعات تغريه بالفساد والانحراف، كما منحه ملكات تدفعه نحو الخير والصلاح، وجعل حياته برمّتها ساحة امتحان دائم، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[سورة الإنسان، الآية:٣]، وجاء في آية أخرى قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[سورة البلد، الآية: ١٠].

إنّ اللّه تعالى يريد للإنسان أن يسلك طريق الخير والصلاح، وأن يعيش حياة طيبة في هذه الدنيا، بوعيه واختياره، لا أن يكون مسيّرًا في هذا الاتجاه.

وجاءت الرسالات والشرائع السماوية لتبيّن للإنسان طريق الخير، وتشجعه على السير فيه. كما حرصت على تحذيره من العواقب الوخيمة المترتبة على انحرافه. وانتهجت الرسالات السماوية التعامل مع الإنسان طبقًا لطبيعته البشرية، ولم تتعاطَ معه كملك من الملائكة، وباعتباره بشرًا، فإنّ له أهواء وشهواتٍ ونوازع للانحراف والفساد، إلى جانب ما في أعماقه من بذور الخير والصلاح، التي ينبغي أن تستثار وتحفز وتستنهض، وتبعًا لذلك يمكن القول إنّ تعامل الرسالات السماوية مع الإنسان يُعدّ تعاملًا واقعيًّا، أبعد ما يكون عن المثالية المجردة.

ومردّ ذلك علم اللّه سبحانه وتعالى، بضعف الإنسان، وإمكانية ميله في أحيان كثيرة نحو أهوائه وشهواته، فذلك غير منفك عن صميم طبيعته البشرية. من هنا يأتي السؤال عن طبيعة التعامل الإلهي مع الإنسان، إذا ما وقع في خطّ الانحراف والفساد وضعف أمام شهواته؟

أبواب النجاة مفتوحة

إنّ من عظيم رحمة اللّه، أن جعل تعامله سبحانه وتعالى مع عباده المخطئين أبعد ما يكون عن الثأر والانتقام، بل على نحو الاستنقاذ والإصلاح، واستعادة الإنسان إلى الطريق القويم، وإبعاده عن النتائج الوخيمة لأفعاله المنحرفة. لذلك فتح اللّه أمام الإنسان أبواب التوبة على مصراعيها، حتى آخر نفس من حياته. ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ اللّه تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1]، أي إنه تعالى يقبل التوبة

(١) كنز العمال، ج٤، ص٢١٠، حديث١٠١٨٧.

عن العبد حتى اللحظات الأخيرة من حياته. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾[سورة الشورى، الآية: ٢٥]، إنه يدعوهم بكلّ تحنّن ولطف إلى العودة إلى جادة الصواب، مهما بلغت ذنوبهم ومعاصيهم.

وإلى جانب فتح باب التوبة، جعل سبحانه وتعالى الأعمال الصالحة بابًا للمغفرة والتجاوز عن أخطاء العباد. فقد يوفّق الإنسان إلى التوبة تارة، وذلك أعظم أبواب المغفرة، وتارة تكون أعماله الصالحة طريقًا واسعًا نحو شموله بالمغفرة والتجاوز عن أخطائه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[سورة هود، الآية: ١١٤]، وفي حالة ثالثة، قد يحظى العبد بالشفاعة التي جعلها اللّه تعالى للأنبياء والأولياء والأئمة والشهداء والصالحين، فهؤلاء يشكلون بابًا من أبواب المغفرة، لما حباهم تعالى من حقّ الشفاعة في الناس، فيتجاوز سبحانه عن ذنوب العباد وأخطائهم كرامة لعباده الصالحين.

ويُبقي تعالى فرص النجاة متاحة أمام العباد إلى أبعد الحدود. فلو أنّ إنسانًا لم يتب إلى اللّه، ولم تكن عنده أعمال صالحة، ولم يكن مستحقًّا للشفاعة، فلا يعني ذلك نهاية المطاف، والأخذ به إلى جهنم، ذلك أنّ اللّه تعالى يمدّ طوق النجاة للعباد حتى وهم في تلك الحالة. وفي هذا الشأن تشير الآية الكريمة إلى أنّ كلّ الذنوب والأخطاء، تبقى ذنوبًا قابلة للمحو، ما بقي العبد تحت سقف الإيمان باللّه والنأي عن الشرك به، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ

وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّـهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

إنّ الآية الكريمة فيها من الرجاء الكبير ما لا حدّ له، على نحو وصفها أمير المؤمنين عليه السلام بأنها أرجى آية في القرآن الكريم. فقد ورد عنه عليه السلام أنه قال: «ما في القرآن آية أرجى عندي من هذه الآية»[١]، فالآية الكريمة تفتح باب الرجاء والأمل أمام الإنسان، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي إنّه باستثناء الشرك باللّه، فإنّ كلّ الذنوب يمكن أن يستوعبها العفو الإلهي. غير أنّ الآية الكريمة لم تُعْطِ وعدًا حتميًّا بغفران الذنوب على نحو مطلق، وإنّما حصرت العفو في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾. من هنا، ينبغي أن يتحلّى الإنسان باليقظة والانتباه، فلا يتوهم أنّ كلّ ذنب يقترفه سيكون محلّ عفو اللّه وغفرانه ما دام دون الشرك به تعالى، ويفهم الآية خطأ فتغريه بالمعصية. فقد لا تظللّ مشيئة اللّه بعض العباد عندما يبسطها ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ وفق تعبير الآية الكريمة. وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ارْجُ اللّـه رَجاءً لا يُجَرّئُكَ على مَعاصيهِ، وخَفِ اللّـه خَوفا لا يُؤْيِسُكَ مِن رَحمَتِهِ»[٢].

لا يأس ولا استهانة

وتزخر الآية الكريمة بجملة من الدروس والأبعاد المهمة. ويأتي في طليعتها؛ إيلاء الأهمية القصوى للتوازن النفسي عند الإنسان حيال

(١) الأمثل في تفسير كتاب اللّه المنزل، ج٣، ص٢٣٢.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢١٧، حديث ٢٠٣١٧.

تعامله مع خالقه جلّ وعلا، فمن جهة ينبغي ألّا يصاب بالقنوط واليأس مهما بلغت ذنوبه وأخطاؤه؛ لأنّ اليأس منهيٌّ عنه بشدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[سورة الزمر، الآية: ٥٣]، ومن جهة أخرى ينبغي ألّا يكون متهاونًا في المعصية. فالأمران في الإفراط والتفريط سيّان.

وروي أنه قيل للإمام الصادق عليه السلام: «قوم يعملون بالمعاصي ويقولون نرجو، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت، فقال: هؤلاء قوم يترجحون في الأماني، كذبوا، ليسوا براجين، إنّ من رجا شيئًا طلبه ومن خاف من شيءٍ هرب منه»[1].

ومما روي في سيرة الإمام زين العابدين عليه السلام، أنّ الزهري الذي كان عاملًا عند بني أمية، عاقب رجلًا حتى مات جرّاء العقوبة، فخرج هائمًا على وجهه، لما تسبب من موت إنسان مسلم، وترك الناس ملتجأ إلى غار بأحد الجبال، فطال مقامه حتى بلغ تسع سنين، وفي إحدى السنوات كان الإمام زين العابدين عليه السلام في الحج، فأتاه الزهري، فقال له الإمام: «إني أخاف عليك من قنوطك ما لا أخاف عليك من ذنبك فابعث بدية مسلمة إلى أهله، واخرج إلى أهلك ومعالم دينك، قال: فقال: فرّجت عني يا سيّدي، واللّه عزّ وجلّ وتبارك وتعالى أعلم حيث

(١) الكافي، ج٢، ص٦٨، حديث٥.

يجعل رسالاته»[١].

الصفح عن الخطأ

أمّا الدرس الثاني الذي يُستلهم من الآية الكريمة فهو أن ننتهج نهجًا تربويًّا مع من يخطئون علينا. وذلك ما ينبغي أن يتجسّد في تعاملنا مع مرتكبي الأخطاء ضمن محيطنا البشري، فقد يصدر الخطأ من أيّ فردٍ من أفراد العائلة تجاه الآخر، زوجًا أم زوجة أو ابنًا، وقد يصدر الخطأ من الأصدقاء والمعارف، والحال نفسه مع العمال والخدم، هنا ينبغي أن يتخلق المرء بأخلاق اللّه سبحانه، فلا يكون قاسيًا، ولا يوصد الأبواب أمام المخطئ، في إمكانية تصحيح نهجه، والتعديل من مسيره؛ لأنّ مآل ذلك سيكون دفعًا له إلى مربع اليأس والقنوط، وسيكون مشجّعًا له على الاستمرار في خطأه والإصرار على انحرافه.

ولعلّ فيما ينشر من قضايا العمالة المنزلية خير مثال، فإذا ما أخطأ العامل أو العاملة، وتمّ استيعاب الخطأ، ومنحه فرصة أخرى للرجوع والتصحيح من مسلكه، فستمضي الأمور على نحو طبيعي هادئ، وعلى النقيض من ذلك فيما لو جرى التعامل معه على نحو قاسٍ غليظ، فلربما دفعه ذلك إلى ارتكاب جرائم داخل المنزل. وكذلك الحال في التعامل مع أخطاء الأصدقاء، فإنّما هم بشر خطاؤون، أرأيت كيف يتعامل اللّه تعالى مع أخطائك تجاهه؟ كذلك ينبغي أن تتعامل مع الآخرين، ذلك

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٧، حديث١٧.

أنّ من كان يعفو عن الناس كان إلى عفو اللّه أقرب.

ينبغي للمؤمن الواعي أن ينأى عن العقلية التعصبية الميالة إلى نفض اليد من الأقربين والأبعدين عند أول اصطدام بهم أو خلاف معهم، فذلك لا ينمّ عن وعي ولا حكمة، بقدر ما ينم عن عصبية وانغلاق. ولطالما قرأنا في سير أئمة أهل البيت عليهم السلام وتعاملهم مع مناوئيهم والقساة من أعدائهم، إذ لم يكونوا عليهم السلام يتعاملون معهم بروح انتقامية، بقدر ما كانوا يفسحون أمامهم مجال العودة، وكم من عدوٍّ تحول إلى موالٍ وصديق، كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[سورة فصلت، الآية: ٣٤].

إنّ المنهج الإلهيّ في استيعاب المخطئين والتجاوز عن المسيئين، ينبغي أن يكون نهجًا معتمدًا على كلّ المستويات، بما يشمل ذلك الحكومات. فقد يخطئ مواطن، ويتجاوز النظام، ويخالف قانون البلد، ومع التسليم بضرورة وجود الروادع ووضع العقوبات في سبيل حفظ النظام، إلّا أنّ تطبيق القانون يمكن أن يأتي على نحو انتقامي محض، أو على نحو إصلاحي، يكون الهدف منه استعادة المواطن المخطئ إلى دائرة الخير والصلاح، من خلال فتح المجال أمامه حتى يعود إلى دائرة الهدى. إنّ هذا النهج الاستيعابي مع المخطئين، هو ما ينبغي أن يجري حتى مع السجناء المجرمين، فهذه الفئة من الناس لا ينبغي للمجتمع أن يتعامل معها بقسوة بالغة، على نحوٍ لا يدع أمام الفرد منهم خيارًا آخر سوى الاستمرار في خطّ الجريمة.

قد يصبح العاصي تقيًّا

أما الدرس الثالث الذي نستلهمه من الآية الكريمة فهو أن نلتزم الإيجابية في النظرة إلى الآخرين. فقد ينظر بعض الناس إلى بعضهم الآخر باعتبارهم مخطئين، وأهل ضلال وانحراف، غير أنّ السؤال المطروح هنا؛ وما يدريك عن المصير الأخير لهذا الإنسان المخطئ، سيّما وأنّ اللّه تعالى يقول: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، فلعلّ التوبة تدرك هذا الإنسان عاجلًا أم آجلًا، فيصبح صالحًا في مستقبل الأيام، ولربما استوعبه عفو اللّه سبحانه وتعالى وأدركته المغفرة.

من هنا ينبغي ألّا ينظر المرء للآخرين من حوله على نحو سلبي، كمنحرفين وفاسدين وحسب، إنّ هذا الإنسان الذي يمكن أن نراه اليوم قطعة من السوء، وبؤرة للخطيئة، وكتلة من الفساد، ربما أخذ منحى آخر في مقبل الأيام. من هنا تنبع أهمية التحلّي بالإيجابية في النظر إلى الآخرين، بأن يتوقع لهم الهدى، ويتمنّى لهم السير في طريق الصلاح. على النقيض مما يفعل البعض، الذي لا يكاد يرى إنسانًا قد وقع في خطأ حتى يذهب بعيدًا في النظر إليه نظرة حالكة السواد، وتبقى هذه النظرة راسخة عنده حتى مع مرور السنين وتقادم الأيام، وهذا نمط من السلوك المتحجّر في الحكم على الآخرين، ينبغي ألّا يقع الإنسان المؤمن في براثنه.

أنِ اشْكُرْ للّه

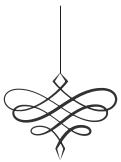

عادة ما لا يلتفت الإنسان إلى النّعم التي يعيش في أحضانها، فنعم اللّه تعالى تحوط به من كلّ جهة وجانب، لكنّه يعيش مسترسلًا غافلًا عن هذه النّعم التي يسبح في بحرها. وها هي آيات القرآن الكريم تذكّره بها، وتوجّهه إلى شكر ربّه، وهو ما يدركه عقله ويؤمن به، فشكر المُنعِم واجب عقلي.

وحين يتّجه الإنسان للشكر، فإنّه بشكره لا يقدّم منفعة لخالقه؛ لأنّ اللّه غنيّ عن العالمين، وإنّما يستفيد الإنسان نفسه، فشكر النّعمة لا يفيد المُنعِم ـ وهو اللّه سبحانه وتعالى ـ وإنّما يفيد المُتنعم بالنّعمة التي يؤدي شكرها، لذلك تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾.

ما فائدة شكر النّعمة؟

أولًا: الشعور بقيمة النعمة

حين يلتفت الإنسان إلى النّعمة، وإلى مصدرها وقيمتها، فإنّه نفسيًّا

يشعر باللذة، وبالراحة والاطمئنان. فمن الناحية النفسية ثبت أنّ الإنسان يتعاطى مع النّعم بحالة نفسيّة، وليس بحالة جسميّة ماديّة فقط. فقد يُقدّم لك طعام بشكل عادي، فتأكله دون أيّ شعور آخر، وقد يُقدّم لك طعام مع إعلام مسبق، يخلق لديك إيحاءً ذاتيًّا أن هذا الطعام، هو خير طعام، فإذا أكلته ستحصل على كذا وستكون كذا، هذا الطعام يتسابق عليه الناس ولا يجدونه، ولكنّه توفّر لك.

حينما يأكل الإنسان طعامًا مع هذا الإيحاء النّفسي، يأكله بلذة أكبر، وباهتمام أكبر. وهذا أمر مجرّب مع مختلف الأشياء التي يتعامل معها الإنسان، قال أحدهم: ذهبت إلى باريس، وسكنت في فندق من الفنادق ـ يبدو عليه أنّه ليس حديثًا ـ فلم أكن مرتاحًا، وتساءلت في نفسي: لماذا أنا في هذا المكان؟ حتى جاءني بعض الأشخاص وقالوا لي: فلان، أنت تسكن هنا. أتدري ما هذا المكان الذي تسكن فيه؟ هذا مكان تاريخي حضاري، فالفيلسوف الفلاني عاش هنا، والشخصية الفلانية كانت هنا، والبرنامج الفلاني أجري هنا. وأخذ يحدثني عن مميزاته وتاريخه العريق. بعد أن سمعت هذا الكلام، شعرت وكأنني في الجنة، مع أنه نفس المكان الذي كنت غير مرتاح له، ولكن تغيّرت نظرتي حوله بمجرد أن سمعت عنه كلّ ذلك الحديث.

فإحساس الإنسان وشعوره له دور في تفاعله مع الوضع الذي يعيش فيه. لذلك حينما يأمرنا اللّه سبحانه وتعالى بأن نلتفت لِنِعَمِهِ ونشكرها، حتى نستحضر في نفوسنا أنّنا أمام نعمة كبيرة من اللّه سبحانه وتعالى.

قد نأتي بكوب الماء ونشربه بشكل عادي، لكن حينما نستحضر هذا المعنى نشرب الماء بنوع من التلذُّذ والارتياح. لذلك فإنّ أولياء اللّه حينما يأكلون أو يشربون ـ كما هي الآداب ـ يبدؤون الطعام والشراب بذكر اللّه.

وهنا قد يتبادر إلى أنفسنا هذا السؤال: لماذا يستحضر الإنسان في نفسه أن هذا من عند اللّه؟

لو جاء لك إنسان بصحن من الطعام، وقال لك: هذا هدية من ذلك الشيخ، أو تلك الشخصية المهمة، فقد تقبل على ذلك الطعام باهتمام أكبر؛ لأنّه جاءك من جهة أنت ترتاح لها، وتفرح أن تلك الجهة مهتمّة بك، وتبعث إليك الطعام. كذلك كلّ نعمة من نعم اللّه، إذا تعاملت معها، مع الالتفات إلى أن هذه نعمة من اللّه، لا شك أنك ستتلذّذ بها أكثر، وسترتاح نفسيًّا.

ثانيًا: دوام النعم من دوام الشكر.

إن اللّه سبحانه وتعالى قد التزم بأن يزيد نعم من يشكره، كما هو مفاد الآية الكريمة: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[سورة إبراهيم، الآية:٧]، إذ يخاطب اللّه عباده بأنهم حينما يتوجهون إليه بالشكر، فإنه تعالى يزيدهم من نعمه أكثر. ذلك أن الإنسان حينما يشكر نعمة اللّه، إنما يحافظ عليها، ويسير في طريق تنمو فيه هذه النّعمة. وكلّنا نعلم أنّ النّعم التي بأيدينا هي من عند اللّه، لذلك لا سيطرة لنا عليها. هل يستطيع إنسان أن يضمن

بقاء أيّ نعمة من النّعم في يده؟ أو يضمن بقاءه هو لهذه النّعمة؟ أو يضمن استفادته من هذه النّعمة؟

وجود النّعمة عندك، وإمكانية الاستفادة منها، كلّ ذلك من عنده سبحانه وتعالى. كم من إنسان محروم من بعض النعم التي لديك؟! على الإنسان أن ينظر إلى الآخرين الذين لا تتوفر لهم النّعم. يكتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الحارث الهمداني: «وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْه، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ»[1].

على الإنسان أن يقارن نفسَه مع من هم أقلّ منه، لكي يدرك قيمة نعم اللّه تعالى عليه. قال أحدهم: أصبحت يوم الجمعة وأردت الذهاب إلى الجامع، فلم أجد حذاءً أنتعله من الفقر، فخرجت من البيت حافيًا، وأنا أشعر بنوع من السخط، وعدم الرضا، والعتاب الخفي: يا ربّ، إلى هذا الحدّ ليس لديَّ حذاء ألبسه؟ يقول: فوصلت إلى باب المسجد، فوجدت شخصًا أقطع الرجلين، فالتفتُّ وحمدت اللّه، فأنا رجلاي سالمتان، وهذا الإنسان فقد رجليه!!.

النّعمة عادة لا يشعر بها الإنسان إلّا إذا فقدها، وكما قيل في الصحة: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراها إلّا المرضى».

ولعلَّ من فوائد عيادة المريض، حينما يذهب الإنسان لعيادة المرضى، أن يشعر بنعمة الصحة التي يعيشها، فيشكر اللّه سبحانه

(١) نهج البلاغة. كتاب٦٩.

وتعالى على هذه النّعمة. وفي بعض الأحيان تكون النّعمة متوفرة، لكن لا يستطيع الإنسان الإفادة منها، كإنسان يدعو شخصًا لأفضل المآدب والأطعمة، ويقدم له الطعام، لكنه يجلس جانبًا لا يأكل معه من لذائذ الأطعمة التي قدّمها ذلك الشخص؛ لأنّ لديه أمراضًا تمنعه من تناول هذا الطعام أو ذاك.

ثالثًا: استثمار النّعمة.

الشكر في معناه الحقيقي هو الاستثمار الصحيح للنّعمة، فلو كنت في ضيافة إنسان، وقدّم لك طعامًا شهيًّا طيبًا، ولم تحسن التصرف، وألقيته أمامه في القمامة، ماذا يعني؟ يعني إهانة لذلك الشخص.

إن اللّه سبحانه وتعالى يعطيك هذه النّعم، حتى تضعها في المكان الصحيح، وتستثمرها بالشكل المناسب، فإذا أسرفت فيها، ووضعتها في المكان الخطأ، فإن ذلك يعني كفرًا بالنّعمة وجحودًا بها، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كَانَ رَسُولُ اَللَّـهِ صلى الله عليه وآله إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ أَمْرٌ يَسُرُّهُ، قَالَ: اَلْحَمْدُ لِلَّـهِ عَلَى هَذِهِ اَلنِّعْمَةِ»[1]. وكان صلى الله عليه وآله دائم الحمد والشكر لله، ويقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الشُّكْرُ عِصْمَةٌ مِنَ اَلْفِتْنَةِ»[2].

ذلك أنّ توجه الإنسان إلى شكر النّعمة يعصمه من الانحراف والفتنة

(١) الكافي، ج٢، ص٩٧.
(٢) تحف العقول، ص٢١٤.

في التعامل مع النّعم. ويقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «أَقَلُّ مَا يَجِبُ لِلْمُنْعِمِ أَنْ لاَ يُعْصَى بِنِعْمَتِهِ»[١]، فهذه النعمة أعطاك اللّه إيّاها، فكيف تعصيه بها؟. وقال عليه السلام: «أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكُمْ لِلَّـهِ تَعَالَى، أَنْ لاَ تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ»[٢].

نعمة البصر التي أنعم اللّه بها على الإنسان، هذه النّعمة الكبيرة لو فقدها، أو أصيب بمرض، أو ضعف في نظره، يدرك حينها قيمة تلك النّعمة، فكيف تعصيه بالنظر بها إلى ما حرّم عليك؟! وهكذا بالنسبة لبقية الجوارح، وبقية النّعم، يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ [سورة يونس، الآية:٦٠].

سبحان اللّه ما أعظم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ إنّ فضله سبحانه يغمر الناس، لكنهم لا يلتفتون إلى هذا الفضل الذي يغمرهم، ولا يشكرون اللّه سبحانه وتعالى.

إنّ شكر النعمة يعني توظيفها بالاتجاه الصحيح، فالشكر ليس مجرد لفظ. يقول اللّه تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾[سورة سبأ، الآية:١٣]، الشكر يكون بالعمل وليس باللفظ فقط، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اَللَّـهَ أَنْعَمَ عَلَى قَوْمٍ بِالْمَوَاهِبِ فَلَمْ يَشْكُرُوا فَصَارَتْ عَلَيْهِمْ وَبَالًا»[٣].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٢) نهج البلاغة، حكمة ٣٣٠.
(٣) وسائل الشيعة، ج١٦، ص٣١٤.

إنّ النعم التي لا تُشكر قد تتحول إلى وبالٍ. فالإنسان الذي يعطيه اللّه تعالى مالًا، فيصرفه في المعاصي، هذه النّعمة تحوّلت إلى وبالٍ عليه، وهكذا مختلف أنواع النّعم، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «شُكْرُ اَلْمُؤْمِنِ يَظْهَرُ فِي عَمَلِهِ، وَشُكْرُ اَلْمُنَافِقِ لاَ يَتَجَاوَزُ لِسَانَهُ»(١).

صحيح أن الشكر باللسان مطلوب، لكن لا يصحّ الاقتصار عليه، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «شُكْرُ كُلِّ نِعْمَةٍ اَلْوَرَعُ عَمَّا حَرَّمَ اَلله»(٢).

ويسأل أبو بصير الإمام جعفر الصادق عليه السلام يقول: هَلْ لِلشُّكْرِ حَدٌّ إِذَا فَعَلَهُ الْعَبْدُ كَانَ شَاكِرًا؟

قَالَ: «نَعَمْ».

قُلْتُ: مَا هُوَ؟

قَالَ: «يَحْمَدُ اللّهَ عَلى كُلِّ نِعْمَةٍ عَلَيْهِ فِي أَهْلٍ وَمَالٍ، وَإِنْ كَانَ فِيمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ حَقٌّ أَدَّاهُ»(٣).

هذا هو الشكر الحقيقي الذي أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «أَدْنَى اَلشُّكْرِ رُؤْيَةُ اَلنِّعْمَةِ مِنَ اَلله»(٤).

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٢) الخصال، ص١٤.
(٣) الكافي، ج٢، ص٩٦.
(٤) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٥٢.

علينا أن نتجه إلى نعم اللّه، وأن نلتفت إليها، وأن نشكرها، حتى يزيد اللّه تعالى نعمه علينا.

تعزيز ثقافة الشكر في المجتمع

عن الإمام علي بن موسى الرضا صلوات اللّه وسلامه عليه أنه قال: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ اَلْمُنْعِمَ مِنَ اَلْمَخْلُوقِينَ، لَمْ يَشْكُرِ اَللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ»[1].

التوجّه إلى النعمة وشكرها منهجية ينبغي أن تكون في نفس الإنسان المؤمن، يهتدي إليها بعقله، ويلتزم بها بتعاليم دينه.

أصل النّعم من اللّه سبحانه وتعالى، فالشكر أولًا وأخيرًا له، لكن بعض نعم اللّه تصل للإنسان بواسطة بعض عباده، تجري على أيديهم. فاللّه تعالى هو الذي أوجدك من العدم، لكن وجودك كان عبر والديك، لذلك عليك أن تشكر اللّه، وأن تشكر الوالدين ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[سورة لقمان، الآية:١٤]، باعتبارهما طريقًا لنعمة الوجود، وهكذا كلّ من كان سببًا لوصول نعمة إليك.

فالإنسان العاقل المنسجم مع فطرته، هو الذي يقدّر أيّ إحسان يصل إليه من أحد، يشكر النّعم حينما تأتيه من المخلوقين.

هذا الفعل ينمّي روح الإحسان عند النّاس؛ لأنّ النّاس يتأثرون بمواقف التقدير والشكر، فحينما يكون المجتمع في ظلّ ثقافة تقوم على أساس الشكر للمحسنين، فإنّ حالة العطاء والإحسان تنمو في

(١) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٤٤.

المجتمع، لذلك نجد في المجتمعات المتقدمة، كيف يخلقون مختلف الحوافز، من أجل تقدير المتفوقين والمتقدّمين، في مختلف المجالات، حتى تتسع رقعة هؤلاء في المجتمع.

وما أحوجنا في مجتمعاتنا إلى أن نعمّم هذه الثقافة، بأن نشكر كلّ من يُسدي خدمة للمجتمع.

من السيئ في أيّ مجتمع أن يُواجه من يعمل لخدمة المجتمع بالتنكّر والجحود، فهذا يجعل الناس لا يقبلون على هذا الطريق، لذلك ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لَعَنَ اَللَّـهُ قَاطِعِي سَبِيلِ اَلْمَعْرُوفِ، قِيلَ: وَمَا قَاطِعِي سَبِيلِ اَلْمَعْرُوفِ؟ قَالَ: اَلرَّجُلُ يُصْنَعُ إِلَيْهِ اَلْمَعْرُوفُ فَيَكْفُرُهُ فَيَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِنْ أَنْ يَصْنَعَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ»[1].

(١) من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٨.

الفصل الرابع

تطلعات روحية

التنمية الإيمانية

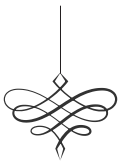

يتطلع الإنسان بفطرته إلى الكمال، ويرغب في زيادة مكاسبه في مختلف المجالات، إذا وجد أمامه فرصة للزيادة فإنه يسعى إلى ذلك، فعلى سبيل المثال: مهما كان عند الإنسان من ثروة ومال فإنه يرغب في زيادة ثروته وإمكاناته، وهو أمر مشروع محبّذ من الناحية الشرعية.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُذَافِرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَعْطى أَبُو عَبْدِاللّهِ (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام أَبِي أَلْفا وَسَبْعَمِائَةِ دِينَارٍ، فَقَالَ لَهُ: «اتَّجِرْ بِهَا» ثُمَّ قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ لِي رَغْبَةٌ فِي رِبْحِهَا وَإِنْ كَانَ الرِّبْحُ مَرْغُوبًا فِيهِ، وَلكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ يَرَانِيَ اللّهُ مُتَعَرِّضا لِفَوَائِدِهِ»[1].

إنّ اللّه تعالى يحب أن يرى عبده ساعيًا للمزيد من الفوائد وتحصيل النعم المشروعة، فالإنسان يرغب ويسعى في زيادة ماله وثروته والشرع يشجعه على ذلك.

---

(١) الكافي، ج٩، ص٥٢٦، حديث١٢.

وفي مجال الصحة واللياقة الجسمية، يسعى الإنسان أن يكون جسمه أكثر صحة ولياقة، خاصة بعد انتشار الوعي الصحي، تجد كثيرًا من الناس يسعون للرشاقة، والالتزام بالتوصيات الصحية، وهناك شركات ومؤسسات متخصصة في الغذاء الصحي، تنشر إعلاناتها بشكل مستمر، مما جعل الناس يراقبون وزن أجسامهم، ويقدمون على التحاليل التي تكشف مستوى الكلسترول ونسبة السكر في الدم، وإذا ما لاحظ الإنسان تقدمًا في مستواه الصحي يفرح ويرتاح نفسيًا، وهو توجه صحيح سليم.

وفي مجال النفوذ والمكانة الاجتماعية، يسعى الموظف للحصول على الترقية في وظيفته، والتقويم الأعلى لأدائه الوظيفي، وإذا وجد تقويم المدير لأدائه متدنيًّا فإنه ينزعج ويتأثر نفسيًّا، فهو يريد أن يعزّز مكاسبه على صعيد الوظيفة والمنصب.

التنمية الإيمانية

كما يسعى الإنسان لتنمية إمكاناته المادية المختلفة، ينبغي ألّا يغفل عن التفكير في الارتقاء بمستوى إيمانه، فالمجال مفتوح أمام المؤمن لتنمية مستوى إيمانه، وكذلك على صعيد المجتمع، ينبغي التفكير في تنمية الحالة الإيمانية في المجتمع، فلها انعكاسات على نفس الإنسان وسلوكه، كما أنّ لها تأثيرًا كبيرًا على الأمن والاستقرار الاجتماعي، فكلما كان الإنسان أكثر إيمانًا، كان أكثر التزامًا في سلوكه بمراعاة حقوق الآخرين.

من هنا فإنّ على المهتمين بالشأن الاجتماعي، الذين يفكرون في تنمية المجتمع من الناحية السياسية والاقتصادية، ألّا يغفلوا مجال التنمية الإيمانية.

نعم.. قد تشوب الحالة الدينية بعض الأخطاء والانحرافات، كحالة التعصب والتشدد، مما يؤدي إلى رد فعل من الحالة الدينية، فنجد بعض الكتاب يعبّر عن انزعاجه من وجود الحالة الدينية في المجتمع!

ينبغي أن نفرّق بين الدين وبين سلوك بعض المنتسبين للدين، وإذا كانت هناك أخطاء في الوسط الديني، فهذا لا يدعو إلى إضعاف الحالة الدينية الإيمانية، بل يجب أن يدفع إلى العمل على ترشيدها وتصحيح المسار الخطأ فيها.

هل حالة الإيمان قابلة للارتقاء؟

النصوص الدينية تؤكد أنّ مستوى الإيمان يمكن الارتقاء به، يقول اللّه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾

وفي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «وَبَلِّغْ بِإِيمَانِي أَكْمَلَ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْ يَقِينِي أَفْضَلَ الْيَقِينِ، وَانْتَهِ بِنِيَّتِي إِلَى أَحْسَنِ النِّيَّاتِ، وَبِعَمَلِي إِلَى أَحْسَنِ الأَعْمَالِ».

فزيادة الإيمان أمر ممكن ومطلوب.

الوسائل والتجليات

أولًا: المعرفة

إذا انبثق التديّن من المعرفة فإنه يكون أفضل وأعمق، وأكثر ثوابًا عند اللّه تعالى، لذلك على الإنسان أن يسعى لزيادة معرفته في الدين، ومنه زيادة معرفته بالحياة، يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فزيادة المعرفة بالنظام الكوني والطبيعة البشرية، تدعو إلى زيادة المستوى الإيماني، وفي رواية عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «ركعتان من عالم خير من سبعين ركعة من جاهل»[1] هي نفس الصلاة ولكن ثواب الصلاة في حالة المعرفة أفضل وأعظم عند اللّه.

الإنسان المؤمن يرغب في ثواب اللّه تعالى، لذلك يسعى لزيادة العبادة، وهو توجه صحيح، لكن زيادة المعرفة لا تقلّ ثوابًا عن العبادة، بل هي التي تعطي للعبادة قيمة أكبر عند اللّه تعالى.

يفكر الواحد منّا في الذهاب إلى الحج والعمرة والزيارة، ويصرف المال والوقت من أجل الثواب، ولعلّ حضوره حلقة أو دورة علمية تحقق له ثوابًا أكثر.

ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنه قال: «فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَى اللَّـهِ مِنْ

(١) الاختصاص، ص ٢٤٥.

فَضْلِ الْعِبَادَةِ»[١].

وعن أبي عبداللّه الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «يا بُنَي، اعْرِفْ مَنَازِلَ الشِّيعَةِ عَلَى قَدْرِ رِوَايتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ؛ فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ هِي الدِّرَايةُ لِلرِّوَايةِ، وَبِالدِّرَاياتِ لِلرِّوَاياتِ يعْلُو الْمُؤْمِنُ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ»[٢].

فالمعرفة والوعي وسيلة للارتقاء الإيماني، إذا أردت زيادة إيمانك عليك أن تثقف نفسك لتزداد معرفة ووعيًا بالدين.

البعض يبخل على نفسه في مجال المعرفة الدينية، وحتى المسائل الفقهية المرتبطة بتكاليفه العملية، لا يكلف نفسه عناء الاطلاع عليها من مصادرها، بل يتصل بأحد العلماء ليسأل عنها!

صحيح أنّ السؤال أحد مصادر المعرفة، لكن بإمكانك أن تقرأ الرسالة الفقهية العملية، فإذا لم تستطع أن تفهم المسألة منها يمكنك الاتصال بمن يشرحها لك.

وكذلك بالنسبة لتفسير بعض الآيات، يمكن للإنسان أن يقرأ كتب تفسير القرآن وهي متوفرة ورقيًا والكترونيًا، لكن البعض لا يكلف نفسه عناء البحث والقراءة!!

---

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص١٨.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٠٦.

ثانيًا: العمل الصالح

يزداد الإيمان بشكل تلقائي من خلال الاستمرار في العمل الصالح، إذا أردت أن يزداد إيمانك فلتزد في أعمالك الصالحة، يقول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَـٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾.

وورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «الإِيمانُ بِضْعٌ وسَبْعُونَ، أوْ بِضْعٌ وسِتُّونَ، شُعْبَةً، فأفْضَلُها قَوْلُ لا إلَهَ إلَّا اللّه، وأَدْناها إماطَةُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ»[1].

إنّ تطبيق الإنسان للمبادئ والقيم التي يؤمن بها يعمق الإيمان في قلبه، ويشعره بالانسجام الداخلي.

ثالثًا: حسن الخلق

ورد عن رسول اللّه ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ وَشَرَفَ الْمَنَازِلِ، وَإِنَّهُ لَضَعِيفُ الْعِبَادَةِ»[2].

الدرجات في الآخرة وفي الجنة لا تنال فقط عن طريق العبادة، فحسن الخلق مع الناس، وحسن التعامل داخل الأسرة، بين الزوجين، ومع الأولاد والجيران والأقرباء والأرحام، ومع الناس الذين تعيش معهم يرتقي بمستوى إيمانك.

---

(١) صحيح مسلم، ص٣٩، حديث٥٨.

(٢) الملا محسن الفيض الكاشاني. المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، ج٥، ص٩٣.

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام «إِنَّ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانا أَحْسَنُهُمْ خُلُقا»[١].

رابعًا: التعبّد والتهجّد

يقول اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

ويقول تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

والنصوص والروايات كثيرة في فضل العبادة والتهجد، وأنها وسيلة لنيل ثواب اللّه والارتقاء بمستوى الإيمان.

ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «إِنَّ اللّه عزّ وجلّ يَقولُ: ما يَزالُ عَبدي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتّى أُحِبَّهُ؛ فَأَكونَ أَنَا سَمعَهُ الَّذي يَسمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذي يُبصِرُ بِهِ، ولِسانَهُ الَّذي يَنطِقُ بِهِ، وقَلبَهُ الَّذي يَعقِلُ بِهِ، فَإِذا دَعا أَجَبتُهُ، وإِذا سَأَلَني أَعطَيتُهُ»[٢].

(١) الكافي، ج٣، ص٢٥٦، حديث١.
(٢) كنز العمال، حديث ١١٥٥.

كيف يكون الانسان مباركًا؟

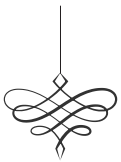

حينما يتحدّث القرآن الكريم عن صفات الأنبياء، وسمات الأولياء، فإنّ ذلك من أجل أن يغرس تلك القيم والصفات في نفوس الأجيال المؤمنة، التي يجب أن تقتدي بالأنبياء في أخلاقها، وصفاتها، وأن تسعى للوصول إلى أكبر قدر من الكمال، وأعلى منزلة من منازل الخير.

وفي حديث القرآن الكريم عن نبي اللّه عيسى بن مريم عليه السلام ينقل عن لسانه اعتزازه بصفات عظيمة منحها اللّه إليه، ومن أبرز تلك الصفات، قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أن يكون الإنسان مباركًا صفة مهمّة، والبركة هي الزيادة والنماء في الخير، لذلك فإن المؤمن يدعو ويطلب من اللّه البركة في كلّ شيء من أمور الحياة، بركة نامية لا حدود لها.

فما معنى أن يكون الإنسان مباركًا؟

المبارك هو الذي تلازم البركة أحواله، وهو مَنْ ينتشر الخير مِنْه

ويفيض على الناس.

فقد تكون بركة الإنسان محصورة في ذاته، وقد تكون متعدّية إلى غيره. ومما ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «قَوْلِ عِيسَى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، قَالَ: جَعَلَنِي نَفَّاعًا لِلنَّاسِ أَيْنَمَا اتَّجَهْتُ»[١].

وفي رواية أخرى عنه ﷺ في تفسير هذه الآية: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، قال ﷺ فيما روي عنه: أي «معلّمًا ومؤدّبًا»[٢].

وكلا المعنيين يصبّ في هدف واحد، وهو أن الإنسان المؤمن ينبغي أن يكون بركة على من حوله في الجوانب المادية والمعنوية، بدءًا من أسرته القريبة منه، وجيرانه والمحيط حوله، ثم على الناس أجمعين.

إن بعض الناس قد تبرز لديهم حالة الخير والبركة في ظرف دون آخر، فيكون محسنًا للقريبين فقط، أو لأهل منطقته، أو لأبناء دينه ومذهبه دون الآخرين.

وقد يكون في حال حضره نافعًا للآخرين، بينما تنحسر تلك الصفة منه في حال السفر. أو حينما يكون في منصب تتأثر أخلاقه، لكن نبي اللّه عيسى عليه السلام تمتع بصفة البركة على الآخرين بشكل دائم، يتجاوز اختلاف الظروف والأوضاع.

---

(١) جلال الدين السيوطي. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج٥، ص٥٠٩.
(٢) المصدر نفسه.

أبعاد بركة المؤمن

وجود المؤمن المتصل باللّه في حدّ ذاته بركة على من حوله، فاللّه بقدرته ورحمته، ولوجود هذا المؤمن بين الناس، يفيض على الناس من رحمته ببركة هذا المؤمن. وهناك روايات وأحاديث كثيرة تشير إلى هذا المعنى، منها ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيَدْفَعُ بِالْمُسْلِمِ الصَالِحِ عَنْ مِائَةِ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْبَلَاءَ»(١).

كما وورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إن اللّه ليدفع بالمؤمن الواحد عن القرية الفناء»(٢)، إن مؤمنًا واحدًا يدفع اللّه به الفناء عن البلدة كلها، وهذا بُعْدٌ غيبي من أبعاد بركة الإنسان المؤمن.

أخلاقه وتعامله الحسن مع من حوله، فيكون وجوده مريحًا لهم؛ لأن الناس يرتاحون من تعامل ذي الأخلاق الطيبة، فالمدير ذو الأخلاق الحسنة، يكون بركة على موظفيه، من خلال أخلاقه وتعامله معهم. ولذلك ورد في الأخبار أن ابتسامة المؤمن في وجه أخيه صدقة، ومقابلة الناس بالبِشْر وإدخال السرور على قلوبهم جميعها مصاديق للبركة. وعلى الإنسان أن يتقصّد هذا الأمر في حياته وأحواله. وفي مقابل ذلك، فإن بعض الأشخاص، يصبح وجودهم في مؤسسة ما، أو محيط ما، سببًا للأزمات والتعقيدات والأذى لمن حولهم. وذلك

---

(١) نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي. مجمع الزوائد، ج ٨، ص ١٦٤. تفسير الطبري، ج٥، ص٣٧٤.

(٢) الكافي. ج٢، ص٢٤٧.

بسبب سوء أخلاقهم وسوء تعاملهم مع الآخرين.

مساعدة من حوله في أمور دينهم ودنياهم، فيكون بركة عليهم، بأن يقدّم لهم الخير والدعم في أمور الدين والدنيا

ولأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كلمة جميلة في صفات شيعته، يقول فيها: «شِيعَتُنَا اَلْمُتَبَاذِلُونَ فِي وَلاَيَتِنَا، اَلْمُتَحَابُّونَ فِي مَوَدَّتِنَا، اَلْمُتَزَاوِرُونَ فِي إِحْيَاءِ أَمْرِنَا، اَلَّذِينَ إِنْ غَضِبُوا لَمْ يَظْلِمُوا، وَإِنْ رَضُوا لَمْ يُسْرِفُوا، بَرَكَةٌ عَلَى مَنْ جَاوَرُوا، سِلْمٌ لِمَنْ خَالَطُوا»[1]. هكذا يجب أن يكون الشيعة في أيّ مكان يقطنون، يصبحون بركة على من يجاورون، بأخلاقهم، وبعطائهم، وبخدمتهم للآخرين.

نماذج للخير والبركة

نلحظ في الواقع الاجتماعي أن حيًّا سكنيًّا لا يتوفر فيه مسجد مثلًا، فإذا ما سكنه أحد الأشخاص الغيارى، فإنه يتحرك لبناء مسجد في الحيّ، فيصبح وجوده في الحيّ سببًا لبركة وجود المسجد على أهل الحيّ.

ونجد بعض الأشخاص يتحركون لتوفير الخدمات لأحيائهم ومناطقهم، فيكونون مصداقًا للبركة فيهم.

وسمعت من بعض أبنائنا المبتعثين للدراسة في أمريكا وغيرها، أنهم كانوا في بداية هجرتهم يشعرون بالغربة، ويفتقدون الأجواء الدينية

(١) الكافي، ج٢، ص٢٣٦.

والاجتماعية، لكن التحاق مبتعث جديد بمنطقة ابتعاثهم، يكون سببًا لاجتماعهم، وتعرفهم إلى بعضهم بعضًا، وحصول البركات فيما بينهم.

فعلى الإنسان أن يفكر كيف يصبح مصدرًا للخير بالنسبة للآخرين، حتى يكون مصداقًا للآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، وأن يبتعد عن أن يكون مصدر أذًى وإزعاج للآخرين بأيِّ شكل من الأشكال.

في معنى التوفيق وأسبابه

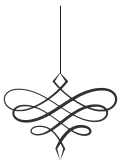

لا شكّ أن كلّ إنسان يتطلع إلى تحقيق النجاح عند السعي إلى أيّ مقصد أو غاية. بَيْدَ أن الظروف قد لا تساعد المرء دائمًا؛ نظرًا لتشابك أمور الحياة، فقد يسعى أحدهم إلى تحقيق غرض من الأغراض، ويبذل في سبيل ذلك كلّ جهده، لكنه لا يصل إلى مبتغاه، نتيجة بروز عائق من العوائق المانعة من ذلك.

وفي أحيان أخرى، قد يحقق الإنسان مبتغاه، لكنه بعد ذلك لا يراه وفق الغاية التي توقعها وأرادها.

وفي حالة ثالثة، قد يحقق أحدهم المقصد المطلوب تمامًا، إلّا أنّ عارضًا طارئًا يأتي عليه فيكدّر عليه صفوه ويسلب منه بهجة الإنجاز. والأكثر مما سبق، أن يكتشف الواحد أنه كان مخطئًا من الأساس في مسعاه لتحقيق مقصد معيَّن.

إنّ جميع تلك الحالات قد تصادف المرء في حياته العادية أو

يلمسها عند آخرين. لذلك يأتي السؤال، عن كيفية اكتشاف المرء الخيار الأصلح له منذ البداية، حتى يضبط حركته في الاتجاه السليم، وكيف يتأتى له توفير الأسباب المساعدة لتحقيق مقاصده، كلّ هذه العناصر يمكن أن يجمعها عنوان واحد هو التوفيق، بحيث يقال إنّ فلانًا من الناس قد وُفّق في تحقيق غايته.

جاء في تعريف التوفيق أنه الوصول إلى ما ينويه الإنسان ويطلبه. وبعبارة أدقّ، قيل إنّ التوفيق هو جعل الأسباب متوافقة في الأداء إلى المطلوب فيما يخصّ الخير، إذ لا يطلق معنى التوفيق على من يبلغ الغاية الشريرة. فإذا كان المطلوب خيرًا، وسلك الإنسان الأسباب إليه، حتى بلغ ما يريد من أمور الخير، فذلك هو التوفيق بعينه، من هنا فالتوفيق من اللّه هو توجيه الأسباب نحو مطلوب الخير.

وتشير جملة من الروايات في هذا الصّدد إلى كيفية حصول الإنسان على التوفيق فيما يريد من أموره الدنيوية والدينية. ومن ذلك ما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ما كلّ مَنْ نَوَى شيئًا قَدَرَ عليه، ولا كلّ مَنْ قدَرَ على شيءٍ وُفِّقَ له، ولا كلّ مَنْ وُفِّقَ أصاب له موضعًا، فإذا اجتمعت النية والقدرة والتوفيق والإصابة فهناك تمت السّعادة»[1].

عوامل حصول التوفيق

إنّ التوفيق في بلوغ الغايات يتطلب توفّر العديد من العوامل المساعدة.

(١) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٢١٠، حديث ٥٠.

الأول: النية الحسنة

عندما ينوي المرء الإقدام على أمرٍ من أمور الدنيا أو الدين، فينبغي عندها أن ينطلق من نية حسنة غايتها الخير. من هنا تؤكّد النصوص على أنّ حسن النية هو من عوامل التوفيق. وعلى النقيض من ذلك، عندما يهمّ المرء بعمل شيءٍ لمجرّد النكاية بأحد، أو تلبية لغريزة أو شهوة غير مناسبة، فهذه النية ليست نية حسنة بأيِّ حالٍ من الأحوال. إنّ النية الحسنة ولا شك من أسباب التوفيق، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قوله عليه السلام: «مَنْ حَسُنَتْ نِيَّتُهُ أَمَدَّهُ التَّوْفِيْقُ»[1]، وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّمَا قَدَّرَ اللّٰهُ عَوْنَ العِبَادِ عَلَى قَدْرِ نِيَّاتِهِمْ، فَمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ تَمَّ عَوْنُ اللّٰهِ لَهُ»[2]. من هنا ينبغي للمرء دائمًا وأبدًا أنْ ينطلق من النّيات الحسنة.

الثاني: الجدّ والاجتهاد

إذا أراد المرء أن يكون موفّقًا في عمله، فعليه بالجدّ والاجتهاد، فقد ورد عن الإمام عليّ بن موسى الرضا قوله عليه السلام: «مَنْ سَأَلَ اللّٰهَ التَّوْفِيْقَ وَلَمْ يَجْتَهِدْ فَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِنَفْسِهِ»[3]، فانعدام الجدّية في نظر الإمام عليه السلام استهزاء بالنفس قبل أيّ شيءٍ آخر، لذلك ينبغي التزام الجدّ في أن يسلك الإنسان كلّ الأسباب التي يمكن أن تؤدي به إلى تحقيق غاياته.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٣٤١، حكمة ٣٢٤.
(٢) بحار الأنوار، ج ٦٧ ص٢١١، حديث٣٤.
(٣) المصدر نفسه، ج٧٥، ص٣٥٦، حديث١١.

الثالث: الاستعانة باللّه

الإنسان مدعو لطلب التوفيق من خالقه في كلّ عمل يقصده ويتطلع إلى تحقيقه، وأنْ يشعر قلبه هذه الرغبة، يقول تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّـهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[سورة هود، الآية: ٨٨]. إنّ من الخطأ الغفلة عن الاستعانة باللّه سبحانه، تحت وَهْمِ الاتّكال الكلّي على النفس في ترتيب الأمور والاستعداد لها، وكم من شخصٍ رتَب أموره، إلّا أن غياب التوفيق ذهب بكلّ ترتيباته أدراج الرياح. ذلك أنّ اللّه سبحانه هو المهيمن على كلّ شيءٍ، فحري بالمرء أن يسأل خالقه التوفيق والتيسير له في كلّ الأمور، حتى وإن كان قد رتب كلّ أموره، وأخذ كلّ استعداداته. يقول الإمام علي عليه السلام في هذا الشّأن: «التَّوْفِيْقُ عِنَايَةُ الرَّحْمَنِ»[١]، وفي وصيته عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالاسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيْقِكَ»[٢].

ومن مصاديق التوفيق التي وقفت عليها شخصيًّا، ما حدّثني به أحد الإخوة حول قضية حدثت معه. فقد كانت لدى هذا الأخ معاملة رسمية يبتغي تخليصها في وقت متأخر من آخر يوم عمل من أيام الأسبوع، وكان متخوّفًا إنْ لم تنجز المعاملة في ذلك اليوم، فتبعات ذلك ستكون كبيرة ومكلفة، وقد سعى في هذا الشأن عبر مختلف السبل، واستعان بأطراف مختلفة، دون فائدة تذكر، لدرجة أوشك معها على اليأس من

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٤١.

(٢) نهج البلاغة، وصية رقم (٣١) من وصية له للحسن بن عليّ عليه السلام.

إتمام المعاملة، حتى إذا لمحه شخص مسؤول في تلك الدائرة الرسمية، وهو حائر في أمره، فسأله المسؤول: أوَلست أنت ذاك الشخص الذي التقيته في المدينة المنورة الصيف الماضي، وقد أفرغت لي غرفة أخيك بعد أن تقطعت بي السبل وعائلتي دون مأوى حتى منتصف الليل، حينها تذكره صاحبنا، وقال: بلى، فقال له ذلك المسؤول بأني اليوم سأردّ لك ذلك الجميل، فدعني أسعى في تخليص معاملتك بنفسي، وهكذا كان.

هنا ندرك بأنّ لحظة التوفيق التي واتت صاحبنا، هي تلك اللحظة التي قرر فيها أن يساعد رجلًا غريبًا عنه، وأن يُسدي له خدمة، وهو ليس مضطرًا لتقديمها، زِدْ على ذلك، لحظة التوفيق التالية وهي تلك التي دخل فيها ذلك المسؤول تلك الدائرة، ورأى هذا الأخ فعرفه فورًا، وقد كان قادرًا على مساعدته، ففعل ذلك بملء إرادته. هذا ولا شكّ من مظاهر التوفيق.

من هنا، ينبغي للمرء أن يسعى لطلب التوفيق، من خلال تمثل النية الحسنة، والجدّ والاجتهاد، والاستعانة باللّه والرغبة إليه، هذه بأجمعها عوامل تساعد الإنسان على أن يمنحه اللّه تعالى توفيقه.

المكاسب العاجلة وخسارة المستقبل

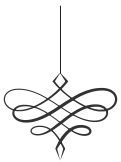

من طبيعة الإنسان الأولية أنه يفكر في حدود لحظته الراهنة، ويحرص على النتائج السريعة العاجلة؛ لذلك وَصَفَ اللّه تعالى الإنسان بأنه عجول، قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾[سورة الاسراء، الآية:١١]، وفي آية أخرى تحدث اللّه سبحانه وتعالى عن هذه الطبيعة في الإنسان وكأنه خُلِق منها، حيث قال: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [سورة الانبياء، الآية:٣٧]؛ فطبيعته أنه يفكر في لحظته الراهنة، في المصالح الآنية، ليس لديه نفَس طويل في الغالب كي يفكر في المستقبل، وفي النتائج البعيدة المدى؛ من هنا فإنه يهتم بالدنيا وبمصالحه الدنيوية؛ لأنها عاجلة، يتمتع بها ويراها سريعة بين عينيه، وبين يديه، ويغفل عن أن هناك دارًا آخرة ينبغي أن يفكر فيها، يقول اللّه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾[سورة القيامة، الآيتان:٢٠-٢١].

إن المصالح العاجلة ـ في أحيان كثيرة ـ تكون على حساب المصالح المستقبلية العظيمة.

إن العقل السليم يرشد الإنسان للتفكير في المستقبل، وفي المصالح العظيمة الكبيرة، التي يجنيها من خلال سيره في الطريق القويم. وتعاليم الدين جاءت كي تتجاوز بالإنسان هذه الطبيعة الأولية؛ طبيعة العجلة، والتفكير في المصالح الآنية.

التعاليم الإسلامية تريد أن تتجاوز بالإنسان هذه الطريقة في التفكير، وتجعله ذا تفكير مستقبلي، لهذا فإن الآية الكريمة تقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[سورة القصص، الآية:٨٣]؛ الإنسان إذا كان يفكر في المصالح العاجلة؛ فقد يندفع في اتجاه الاستكبار على الآخرين، والترفع عليهم؛ لأنه يرى في ذلك نوعًا من المتعة واللذة، حيث يبدو وكأنه أفضل من الآخرين.

لكن هذه اللذة، وهذا الشعور وهمي، الرفعة واللذة الحقيقية تكون غدًا عند اللّه سبحانه وتعالى، في يوم القيامة.

ماذا يفيد الإنسان عندما يعيش في هذه الدنيا في وهم القوة والعلو، ثم حينما يغادر الدنيا يكون في حضيض نار جهنم والعياذ باللّه؟ فماذا تفيده قصوره الوهمية في الدنيا؟ ماذا تفيده مناصبه في الدنيا؟

إنه سيغادر هذه الدنيا حتمًا، اليوم أو غدًا، وحينما يغادرها سيكون في قبر ضيق، والنتيجة هي الآخرة، المكانة الحقيقية هناك؛ لأنها مكانة دائمة خالدة لا تنغّصها الأكدار؛ أما المكانة التي يحصل عليها في

الدنيا فهي محدودة، حتى لو ملك الدنيا كلها؛ فإنه سيموت، كما تصيبه الأمراض والعلل والدواعي التي تكدِّر صفو عيشه وحياته، لكن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية.

مشخّصات السعادة الحقيقة

لو قرأنا التاريخ وتصفحنا حياة البشر؛ لوجدنا أن الذين يتنعمون تنعمًا حقيقيًا في الدنيا، هم الذين يعيشون الإحساس بالرضا داخل النفس، فلو كان الإنسان يَمْلك ما يَمْلك، لكنه في داخل نفسه لا يعيش رضًا وارتياحًا، ولا يشعر بالسعادة، فماذا تفيده الإمكانات التي يعيش في رحابها؟

الرضا النفسي، والسعادة لا تتحقق إلّا من خلال القِيَم والمبادئ، ومن خلال رضا اللّه تعالى، فالإنسان المتقي وإن كانت مظاهر حياته لا توحي بالرفاهية والراحة، لكنه في أعماق نفسه يعيش راحة عظيمة كبيرة، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[سورة التوبة، الاية:١٠٠]؛ يشعر بأنه قريب من اللّه سبحانه وتعالى.

ماذا عن رضا الناس وتقديرهم؟

أكثر الأنبياء كانوا يعيشون في أوساط الجاحدين والمنكرين لهم، لذلك عانوا من أقوامهم ومجتمعاتهم، كانوا يتهمونهم بأفظع التهم، لكن النتيجة هي الذِّكر الباقي، والثناء، فالأثر العظيم في حياة البشرية هو من تأثير جهود الأنبياء ورسالاتهم.

يُذكر في هذا المجال: أن أحد العلماء، أراد أن يقدم هدية لأحد الملوك السابقين في إيران، فجاء إليه، بنسخة من نهج البلاغة مخطوطة بخط جميل، وقدمها إليه قائلًا: «أنا لم أرَ هدية أجمل من هذا الكتاب؛ نهج البلاغة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام».

كان المجلس مزدحمًا بشخصيات البلاد من وزراء، وولاة، وعلماء.

قال له الشاه: اجلسْ؛ فلما خرج كل الناس، اختلى به جانبًا، وقال له: «أيها الشيخ العالم! أنت تقدم لي نهج البلاغة، فهل كان صاحب نهج البلاغة ناجحًا في حياته حتى تقدم لي نهجه كي أسير عليه؟! فما هذه الهدية التي جئت بها إلَيَّ»؟!

التفت العالم إليه، فقال له: «لماذا لم تقل لي هذا الكلام أمام الناس؟! هلَّا قلت لي أمام الناس أن هذا الكتاب يحكي تجربةَ إنسانٍ، لم يحقِّق النجاح في حياته، وحكمه وسلطته؟ لماذا لم تقل لي هذا الأمر، وانتظرتَ حتى يخرج الناس جميعًا، واختليتَ بي حتى تقول لي هذا الكلام؟

قال الشاه: لا أجرأ أن أقول كلمة انتقاصٍ لعلي بن أبي طالب أمام الناس!

فقال له العالم: إذن هذا هو النجاح الحقيقي للشخص الذي بعد أربعة عشر قرنًا من وفاته، أنت الشاه الحاكم لا تجرأ على أن تقول كلمة في انتقاصه أمام الناس، فهل هناك نجاح أكبر من هذا النجاح؟! هل

هناك مكسب أكبر من هذا المكسب؟!.

العباسيون حَكموا، وأهل البيت لم يستلموا الحكم؛ لكن أين تأثير العباسيين في العالم؟ أين ذكرهم ووجودهم وآثارهم؟ في مقابل آثار أهل البيت عليهم الصلاة والسلام!

إن هذا يدفع الإنسان أنْ يفكر في الأمر؛ بأن لا تهيمِن عليه مظاهر اللحظة الآنية، فقد يجد الإنسان مجالًا لتحقيق المكاسب، لكن عن طريق الحرام، ثم ماذا بعد ذلك؟! إنه العذاب، ومحاكمة التاريخ.

في أحيان كثيرة يجد الإنسان أمامه فرصة في صراعاته مع الآخرين، من هم قريبون أو بعيدون، بأن يحقِّق انتصارًا، لكن هذا الانتصار إذا كان فيه ظلم وتَعَدٍّ؛ فإنه في الواقع هزيمة وليس انتصارًا.

نجد الآن قضايا كثيرة في المحاكم؛ إنسان يعلم أن ليس له حق، لكنه بشكل أو بآخر يستطيع أن يجعل الحق له، فيبدو وكأنه انتصر؛ لأنه أخذ مكسبًا عن طريق المحكمة، لكن هل هو حق له؟

رسول اللّه ﷺ كانت تحصل بعض الخصومات في مجلس قضائه، وكان ﷺ يحكم وفق أحكام الدين؛ فلو ادعى شخص يطالبه بالبَيِّنة، وإذا لم تكن لديه بَيِّنة لا يَحكم بأن الحق له، وفي بعض الأحيان يكون الحق له في الواقع، لكن الرسول ﷺ يحكم حسب الظواهر.

لذلك ورد عنه ﷺ قوله: «إنما أقضي بينكم بالبينات والأيمان، وبعضكم ألحن بحجته من بعض، فأيما رجل قطعت له من مال أخيه

شيئًا، فإنما قطعت له به قطعة من النار»[1].

حتى لو أَصدر رسول اللّه ﷺ الحكم، فإذا كان هذا الحق ليس لك، فلا تغتر بهذه المصلحة الآنية السريعة؛ إنها قطعة من نار. إذا كنت تعلم أن هذا الأمر ليس لك؛ فعليك ألّا تغامِر بمصالحك المستقبلة في الآخرة.

علينا دائمًا أن نَجعل هذه الآية الكريمة نصب أعيننا: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

(١) وسائل الشيعة. ج٢٧، ص٢٣٢، حديث ٣٣٦٦٣.

المكاسب المعنوية وحمايتها من الآفات

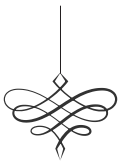

يتطلب الحفاظ على المكاسب المعنوية التي يحققها الإنسان توفر الرعاية والصيانة، على نحوٍ لا يقلّ عن رعاية الممتلكات المادية. لما قد يعترضها من الأخطار والآفات التي قد تأتي عليها، ويشمل ذلك كلّ أشكال المكاسب، فالصحة البدنية التي تشكّل أهمّ مكسبٍ في الحياة، لا بُدّ وأن يجري تعاهدها بالرعاية الطبية، وإلّا أصبح الإنسان عرضة للأمراض والعلل الناتجة عن التعرض للفيروسات المختلفة، نزولًا إلى نظافة المسكن الذي يقطنه الإنسان، والثياب التي يرتديها، والسيارة التي يتنقل بها، والتي تتطلب جميعًا الرعاية والصيانة للحفاظ على نظافتها وكفاءتها، وإلّا أصبحت عرضة للعطب والفساد، وغير قابلة للاستخدام. وكما المكاسب المادية، كذلك الحال مع المكاسب المعنوية، التي تتطلب بدورها اليقظة والرعاية، وإلّا كانت عرضة للآفات التي قد تتسلّل إليها.

المكاسب المعرفية كيف نحتفظ بها

لقد تضمنت النصوص الدينية، تنبيهًا مشدّدًا إلى ضرورة المحافظة على المكاسب المعنوية، والنأي بها عن الآفات. فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ورد عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنه قال: «لكلّ شيء آفة، وآفة العلم النسيان، وآفة العبادة الرياء، وآفة اللبّ العجب، وآفة الجود السّرف، وآفة السّخاء المنّ، وآفة الغنى البخل»[1]، وأول مكسب يشير له عليه السلام في هذا السّياق؛ مكسب العلم، فقد يكتسب الإنسان علمًا ومعرفة، وذلك ما ينبغي أن تكون له قيمة عنده، تضاهي قيمة المكتسبات المادية، غير أنّ هذه المعرفة تبقى في أمسّ الحاجة للرعاية والصيانة، وإلّا تسلّل إليها النسيان، فيغدو ذلك العلم وكأنه لم يكن، بعد أن صرف جهدًا كبيرًا في نيله وتحصيله.

ولا حاجة للتذكير هنا بوجود أساليب وسبلٍ يحافظ من خلالها الشخص على معلوماته المدّخرة. ومن ذلك اعتماد أسلوب التوثيق والكتابة، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «اُكْتُبُوا فَإِنَّكُمْ لاَ تَحْفَظُونَ حَتَّى تَكْتُبُوا»[2]، وهذا ما يعتمده النابهون دائمًا، الذين يسارعون لكتابة كلّ فائدة معرفية يكتسبونها في هذا المورد أو ذاك. وعلى النقيض من ذلك تجد آخرين، يفتقدون لهذا التوجه تمامًا، فهم أبعد ما يكونون عن توثيق معلوماتهم ومعارفهم، التي سرعان ما تضيع

(١) كنز العمال، ج١٦، ص٢٠٤، حديث ٤٤٢٢٦.
(٢) الكافي. ج١، ص٥٢.

وتذهب أدراج الرياح. وعلى غرار ذلك يأتي استحضار العلم في سبيل الحفاظ عليه، وأقرب مثال على ذلك، أولئك الذي يتعبون أنفسهم في اكتساب لغة أجنبية، لكنهم سرعان ما ينسون الكثير منها، نتيجة عدم استحضارها، من خلال ممارستها تحدّثًا وقراءةً وكتابةً.

ومن الوسائل الكفيلة بالحفاظ على المعرفة، ما يتعلق ببثها ونشرها. وقد ورد عن الامام عليّ: «زكاة العلم نشره»[1]، وذلك ما يعني الحرص على نشر العلم وبثه بين الناس. ومما نقل عن المرجع الراحل السيد محمد الشيرازي: أنه سئل ذات مرة عن سبب حفظه واستحضاره القصص والإحصاءات، والمعلومات المهمة في مختلف أحاديثه، وعلى نحو مثير، فأرجع السبب إلى أنه يتعمّد تكرار سرد أيّ معلومة مهمة يتحصّل عليها، فإذا ما نقل له شخص أيّ معلومة مهمة، تحصّل عليها أثناء سفره لبلاد متقدمة، فإنّ السيد كان سرعان ما يقوم بتدوير هذه المعلومة في جلساته اللاحقة، كما يدمجها ضمن كتاباته، وعلى هذا النحو كانت المعلومة تزداد رسوخًا عنده. من هنا، إذا أدرك الإنسان أنّ آفة العلم النسيان، فإنّ عليه أن يجاهد للحفاظ على معارفه المختلفة من هذه الآفة حتى لا تضيع منه.

متى يتحقق الرياء؟

ويتناول الإمام عليّ عليه السلام في كلمته آفة أخرى وهي آفة الرياء الذي

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٢٢٢، حكمة١٦.

قد يتلبّس العابدين. حيث يقول عليه السلام: «.. وآفة العبادة الرياء»، حيث من الجليّ أنه ولكي يتقبّل اللّه أعمال العبد يجب أن يتوفر فيها شرط الإخلاص، سواء كانت صلاة أو صومًا وحجًّا وعمرة أو إنفاقًا في سبيل اللّه. وذلك ما يقتضي أن يحذر الإنسان من غواية الشيطان على نحو يصرف العبادة برمّتها إلى تحصيل السمعة، ما يعني ضياع تلك العبادات وتبديد ثوابها، والأنكى زوال أيّ تأثير وانعكاس لتلك العبادة على النفس، والسلوك والأخلاق. ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنه قال لابن مسعود: «يا بن مسعود، إيّاك أن تظهر من نفسك الخشوع والتواضع للآدميين وأنت ما بينك وبين ربك مصرٌّ على المعاصي والذنوب»[1]، ويقول تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إيّاك والرياء، فإنه من عمل لغير اللّه وكله اللّه إلى من عمل له»[2].

وينبغي القول إنّ ذكر الناس على نحو الإجلال للقائم بعمل الخير، أمرٌ لا علاقة له بالرياء. ذلك أن المعنى المحدّد للرياء هو قيام الفرد بعمل الخير قاصدًا به نيل الإعجاب، وتحسين السمعة بين الناس. وقد سئل الإمام الباقر عليه السلام عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسرّه ذلك؟ قال عليه السلام: «لا بأس، ما من أحدٍ إلّا وهو يحبّ أن يظهر

(١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٠٩.
(٢) الكافي، ج٢، ص٢٩٣.

اللّه له في الناس الخير، إذا لم يكن صنع ذلك لذلك»[١]، إنه ما دام قد أنجز العمل خالصًا لوجه اللّه فلن يضيره أن يرتاح إنْ علم الناس بذلك فذكروه له بخير، فالفرح بذلك من صميم الطبيعة البشرية.

على الأذكياء أن يحذروا العُجْب

ومن الآفات الممقوتة التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام؛ العجب. حيث قال عليه السلام: «.. وآفة اللبّ العجب»، والمقصود باللبّ هو العقل، وكلّ ما يرتبط به من فكرٍ ورأيٍ وفطنةٍ وذكاء. إذ يُعَدّ امتلاك الإنسان عقلية وقّادة مكسبًا كبيرًا دون شك، غير أنّ هناك آفة يمكن أن تتسلل للإنسان الفطن، وهي آفة الإعجاب بالنفس، بألّا يبقى هناك ـ بنظره ـ من هو أكثر فهمًا وفطنة منه، فلا تعود آراء الآخرين تعني له شيئًا، وفي هذه الحالة يصبح العجب بالنفس آفة قاتلة. من هنا على الإنسان الذي أنعم اللّه عليه، بالقدرة العقلية المميزة، وحدة الذكاء، ونضج الرأي، ألّا يفرّط بهذا المكسب، نتيجة تسلل آفة العجب إلى نفسه. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من أعجب برأيه هلك»[٢]، وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الإعجاب يمنع من الازدياد»[٣]، حيث لا يعود المعجب بذاته يشعر بالحاجة إلى البحث، والتقصّي، والتشاور، والاستضاءة بآراء الآخرين. وعلى النقيض من ذلك وردت نصوص

(١) الكافي، ج٢، ص٢٩٧.
(٢) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص٣٢٠.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص١٦، حكمة ١٢٠.

دينية تحثّ الإنسان على الاستفادة من آراء الآخرين مهما كان مستواه ورأيه، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «حقّ على العاقل أن يضيف إلى رأيه رأي العقلاء وأن يضمّ إلى علومه علوم الحكماء»[١].

وقد وضع الإمام الصادق عليه السلام معيارًا لمعرفة الإنسان نفسه ما إذا كان مصابًا بالعجب أم لا، وهو الاعتراف بفضل الآخرين أو إنكاره. فقد ورد عنه عليه السلام أنه قال: «من لا يعرف لأحدٍ الفضل فهو المعجب برأيه»[٢]، فالمصاب بحالة العجب هو ذاك الذي لا يقيم وزنًا للآخرين، ولا يعدّ رأيهم شيئًا أمام رأيه. وحقيقة الأمر أنّ البعض قد يكون عنده درجة متفوقة في جانب من الجوانب، غير أنّ ذلك لا يلغي تفوق الآخرين عليه في جوانب أخرى، وقد ينظر للأمر من زاوية معينة، فيما يتناوله الآخرون من زوايا أخرى مختلفة، فإن لم يفكّر الإنسان على هذا النحو من سعة الأفق، فهو أقرب ما يكون من الإصابة بآفة العجب.

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنما أراد بوصاياه تلك أن يحرص الإنسان المؤمن على الحفاظ على مكاسبه المعنوية، وأن يحذر من تسلل الآفات ونقاط الخلل إليها، تمامًا كما يحذر من تسلل الآفات إلى مكتسباته وممتلكاته المادية.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٢٣٢.
(٢) بحار الأنوار، ج٦٩، ص٣١٦.

استمرار وتنمية المكاسب

ليست هناك ضمانة حتمية في بقاء واستمرار أيّ مكسب يتحقق للإنسان في هذه الحياة. كلّ مكسب قد يكون معرّضًا للزوال والانتهاء، الصحة مكسب يتمتع به الإنسان لكن ليست هناك ضمانة لاستمراره، فكم من صحيح أصابه المرض. الثروة مكسب لكنها ليست مضمونة البقاء فقد تتلاشى وتزول، وكذلك الحال في المنصب والجاه وفي أيّ مكسب من المكاسب. وهذا يعني أنّ على الإنسان أن يكون يقظًا، وأن يعمل للحفاظ على المكاسب التي تتحقّق له، حتى يمنع زوالها أو ضعفها وانحسارها، أما إذا غفل أو تهاون فإن تلك المكاسب سرعان ما تزول وتنحسر.

وهناك مكاسب معنوية تتمثل في إقبال الإنسان على أعمال الخير، وهي لا تقلّ أهمية عن المكاسب المادية، لذلك يوجّه القرآن الكريم الإنسان أن يحمد اللّه تعالى على نعمة الهداية، يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾. الإقبال على الخير واتّباع الحقّ مكسب عظيم، لكن هذا المكسب المعنوي الكبير قد يتعرض للضعف والانحسار كما هو الحال في المكاسب المادية، وعلى الإنسان أن ينتبه وأن يكون يقظًا حتى لا تزول منه مكاسبه المعنوية التي يتوفق لها. الآية الكريمة ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[سورة آل عمران، الآية:٨] تُلفت الإنسان إلى هذا الأمر: أيّها الإنسان، إذا كنت تشعر أنك في خط الهداية في توجهها العام كالسير على منهج اللّه والعقيدة

الصحيحة، أو الهداية في مناهجها التفصيلية كالقيام بعمل خير وصلاح، فعليك أن تنتبه من مكائد الشيطان الذي يريد أن يثنيك عن أعمال الخير والصلاح، إضافة إلى طبيعة حياة الإنسان والضغوط التي قد يتعرض لها، فكلها أسباب قد تحرم الإنسان من بعض المكاسب المعنوية التي تتحقق له، لذلك يدعو الإنسان ربه: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، هذه الهداية نعمة كبيرة منك يا ربّ فلا تسلبني إيّاها، والزوغ هو الانحراف، زاغ البصر أو الشمس، يعني انحرفت عن موقعها، فإذا حصل انحراف في حياة الإنسان وفقد بموجبه مكاسب معنوية، فهذا حرمان وخسران.

والسؤال هنا: كيف يحافظ الإنسان على المكاسب المعنوية؟

هناك وسائل وأساليب:

الأول: تعزيز أهمية عمل الخير في النفس.

إذا كنت تؤدّي صلاتك جماعة فعزّز هذا العمل في نفسك، تحدث عن قيمة هذا العمل مع نفسك ومع من حولك، تأمل فيه واكتشف غاياته. وكذلك الحال بالنسبة لقراءة القرآن، ومساعدة الفقراء، والعمل التطوعي، كلها أمور تحتاج أن تتعزز في نفس الإنسان. ومن المستحبات الشرعية سجدة الشكر، إذا عمل الإنسان خيرًا يسجد شكرًا لله لتوفيقه إيّاه لهذا العمل، وقد تعودنا في صلاة الفريضة أن نختم أداءها بسجدة الشكر، وهي مستحبة وليست واجبة، والمغزى منها أن تكون منتبهًا إلى

أنّ هذه نعمة من اللّه تعالى أن وفقت لأداء هذه الفريضة، فتشكره عليها. جاء في العروة الوثقى هذا النصّ: (يستحب السجود للشكر لتجدّد نعمة أو دفع نقمة أو تذكرهما مما كان سابقًا أو للتوفيق لأداء فريضة أو نافلة أو فعل خير ولو مثل الصلح بين اثنين، فقد روي عن بعض الأئمة عليهم السلام أنه كان إذا صالح بين اثنين أتى بسجدة الشكر، ويكفي في هذا السجود مجرد وضع الجبهة مع النية)[1]. وورد عن أبي جعفر محمد بن الباقر عليه السلام أنه قال: «إن أبي ـ علي بن الحسين عليه السلام ـ ما ذكر لله عزّ وجلّ نعمة عليه إلّا سجد، ولا قرأ آية من كتاب اللّه عزّ وجلّ فيها سجود إلّا سجد، ولا دفع اللّه عنه سوءًا يخشاه أو كيد كائد إلّا سجد، ولا فرغ من صلاة مفروضة إلّا سجد، ولا وفق لإصلاح بين اثنين إلّا سجد»[2].

الثاني: اختيار الأجواء المشجعة على الخير.

قد يعتاد الإنسان أن يرتاد مجالس معينة، لكن عليه أن يتأمل وينظر، هل أجواؤها سلبية أم إيجابية؟ بعض المجالس تكون سلبية فإذا تحدثوا عن الجمعيات الخيرية مثلًا استعرضوا السلبيات وإذا تناولوا نشاطًا ثقافيًّا بحثوا عن نقاط ضعفه، وإذا ذكروا شخصية دينية أو اجتماعية انهالوا عليها نقدًا وطعنًا! أمثال هؤلاء الناس نفوسهم سوداوية لا تنظر إلى ما هو إيجابي، ومن يجالسهم يخرج معبّأً ضد هذا وذاك. الإنسان

(١) السيد محمد كاظم اليزدي، العروة الوثقى مع تعليقة السيد علي الحسيني السيستاني، ج٢، ص١٧٤، مسألة ١٦٥٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج٧، ص٢١، حديث ٨٥٩٧.

بحاجة إلى أن يبحث عن المجالس التي فيها تشجيع على عمل الخير، حتى يحافظ على مكاسبه المعنوية.

الثالث: التطوير والتنمية في عمل الخير.

قد يسأم الإنسان في عمل الخير بعد زمن من ممارسته، ولكن إذا توجّه لتطوير العمل، فهذا يشجّعه أكثر على الاستمرار فيه؛ لأنه سيرى نفسه في تجدّد وحيوية فلا يصيبه الملل.

الرابع: اتخاذ القدوات.

أن يجعل الإنسان أمام عينيه القدوات الصالحة ليطمح في زيادة الخير. أنت تصلي جماعة بعض الفرائض، فإذا كنت تعرف بعض الأشخاص يؤدون الجماعة في الفرائض الخمس فتذكرهم واجعلهم أمام ناظريك، حتى تتحفز فتقتدي بهم، أو على الأقلّ تحافظ على ما بيدك. بخلاف ما إذا وضعت نصب عينيك شخصًا يصلي مرة في الأسبوع أو مرة في الشهر جماعة، سوف تجد نفسك أفضل منه بكثير، وهذا لا يشكل حافزًا للزيادة في عمل الخير، تذكر من هو أفضل منك حتى تتحفز، وهكذا بالنسبة للعطاء في سبيل اللّه، لماذا ينفق غيرك أكثر منك مع استطاعتك؟! الإنسان حينما يسمع أنّ فلانًا كسب صفقة مادية، فإنه يتمناها لنفسه، كما يقول تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، في الأمور المعنوية ينبغي أن يكون لديه هذا التمني والطموح، تمنّ لنفسك القيام قبل غيرك بالخير.

في بعض الأحيان قد ترى نفسك تقبل على عمل خير وبعد فترة تتراجع عنه، هذا حرمان من الخير، كأن تصلي الجماعة وبعد فترة تترك لسبب أو لآخر، إنّ كثيرًا من المبررات من وساوس الشيطان.

كنت تؤدي حقوقك الشرعية، ومن ثم وجدت نفسك لسنوات تركت هذا العمل، تأمل جيّدًا ستجد أنك خسرت خيرًا كثيرًا، والإنسان لا يرضى لنفسه الخسارة ما دام قادرًا على الحفاظ على المكسب الذي يُقرّبه إلى اللّه تعالى، ويزيد رصيده في الآخرة، وخدمته للمجتمع.